

دُعَاءُ الْحَشْرِ
وَالطَّيْرِ وَالْجِبَالِ
فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

الدكتور
موسى الخياط



دعاء
الحشرات والطير والجمال
فى القرآن الكريم

الطبعة الأولى
١٤٢٣ هـ = ٢٠٠٣ م
جميع الحقوق محفوظة



القاهرة - ٥٥ شارع محمود طلعت

(من شارع الطيران) - مدينة نصر

تليفون : ٢٦١٠١٦٤

رقم الإيداع ٢٠٠٣/١٧٤٦

الترقيم الدولي : 3 - 058 - 344 - 977 I.S.B.N.

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر

٨٣٣٨٢٤٢ - ٨٣٣٨٢٤١ - ٨٣٣٨٢٤٠ : ☎

e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

تقديم

الحمد لله الذى له فى كل لطيف من قدرته معجز يتفكر فيه ، ومن
صنعتة خفى يتنبه له ، ونعم تقتضى مواصلة حمده ، ومنن تحت على
متابعة شكره .

سبحانه وتعالى خلق الخلق ، وبسط الرزق . . خلق الخلق فأتقن
الصنع وأبدع التصوير ، وبسط الرزق فأحسن التدبير وأجاد التقدير ،
وجعل فى كل شئ . . من كل شئ . . ولكل شئ آية بل آيات . .
تشير إلى وجوده ووحدانيته . . وتهدى إلى بعض آثار قدرته وعظمته
. . وتدل على شواهد حكمته ورحمته . وصلى الله وسلم على
محمد نبيه الصادق الأمين البشير النذير . ومن سبقه من الأنبياء
 والمرسلين ، وعلى آله الطيبين الأخيار .

وبعد . . .

فإن الإنسان إذا نظر إلى السماء . . لا يملك إلا أن يسبح بحمد
الخالق العظيم الذى خلق هذه السماء . . التى لا نعرف لها بداية . .

ولا يصل التفكير فيها إلى نهاية وإذا كان قد قدر اتساعها مما لا قدرة للعلم أو العفل أن يصل إليه .. فإن عمقها واتساعها لأكثر من ذلك وأبعد منه .. فلا يسع الإنسان إلا أن يقول بملء فيه : لا إله إلا هو .. يرى فيها النجوم .. فيقول العلم إنها عدة ملايين .. ثم يعود ليصحح قوله .. بل إنها عدة بلايين، ثم يعود للرأى الأصح فيقول إن عددها فوق الخدس والتخمين .. فأى رقم لها .. مهما كان كبيراً، وتستطيع نقطة أو كتابته .. فهي أكثر منه على سبيل القطع واليقين .. تبارك الله رب العالمين .

وهذه الأرض التى نعيش عليها ، بما فيها ومن فيها من جبال ووادية وياسة وماء ... إنها كرة معلقة فى الفضاء .. وهى تدور حول نفسها .. وتدور حول الشمس .. وهذه حقائق علمية .. وآيات قرآنية .. فلا يستطيع الإنسان إذا تدبرها وتفكر فيها إلا أن يسجد لله سبحانه وتعالى الذى تتجلى بعض عظمته فيها ، وهذه الكائنات من نباتات وحيوانات .. وإنسان .. أليست شواهد وجوده .. ودلائل بره وجوده .. لقد وجد العلم والعلماء فى هذه الكائنات من الأمور المدهشة العجيبة، ومن الحقائق المثيرة الغريبة .. ما جعل كل عالم منها .. لا يقل روعة وإعجازاً عن عالم الفضاء بما فيه من نجوم وسماء ، ولما كان الكتاب الكريم لم يترك صغيرة ولا

كبيرة إلا أحصاها ، فإننا نجد بين طياته أيضا ما يُشير بشكل واضح إلى «لغة الطير والحيوان» وهو ما يوضحه لنا القرآن الكريم على لسان سيدنا سليمان عليه السلام فى قول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ﴾ ^(١) وهو ما لم يستطع العلماء إدراكه والتحقق منه إلا فى وقت قريب ، وذلك بعد عمل العديد من التجارب والمشاهدات التى تثبت صحة هذا القول .

إن مذهب أهل السنة يقول بأن الله أودع فى الجمادات والحيوانات علما خاصا لا نفقهه وأن لها صلاة وتسييحا وخشية كما نطق بذلك الكتاب والسنة . . . ويجب على كل مسلم الإيمان به وتفويض علمه إلى الله تعالى ، وإن مدافعة نصوص الكتاب والسنة، وتكليف تأويلها لمجرد استبعاد وقوعها ليس من دأب من يؤمن بالغيب ، وأن اللائق بالمؤمن أن يقص جناحى العقل وأن يؤمن بكل ما جاء به الرسول المصطفى ﷺ ، ولهذا ما ضل من ضل من المبتدعة وأهل الأهواء إلا بمتابعة العقل وترك موافقة النقل لأن عقول المخلوقين بأسرهم على اختلاف مراتبهم قاصرة عن إدراك الكثير والكثير مما أودع الله سبحانه وتعالى فى هذا العالم من الحكم والأسرار ، ولهذا قال الإمام

(١) النمل : آية ١٦ .

الشافعي رضى الله عنه : «إن للعقل حداً ينتهى إليه ، كما أن للبصر حداً ينتهى إليه» ، وقال الإمام الغزالي : لا تستبعد أيها المعتكف فى عالم العقل أن يكون وراء العقل طور يظهر فيه مالا يظهر فى العقل لقوله تعالى فى سورة النور ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (١) . وقال تعالى فى سورة ص على لسان نبيه داود عليه السلام ﴿ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ (٢) . وما قيل إنه تسبيح بلسان الحال لا بلسان المقال يأباه تقييده ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ ، فهو بلسان لائق بهن ، وقال مقاتل : كان داود عليه السلام إذا ذكر الله ذكرت الجبال معه وكان يفقه تسبيح الجبال .

ولقد قطع الله الطريق على كل من يمارى فى تسبيح النبات والجماد بقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ (٣) .

وتسبيح الله تنزيهه سبحانه عن الشريك فى الخلق ، وعن الشريك فى القدرة أو الإرادة ، أو المنح ، أو المنع .

(١) سورة النور : آية ٤١ .

(٢) سورة ص : آية ١٨ .

(٣) سورة الإسراء : آية ٤٤ .

إنه التوحيد : توحيد الله بالحمد العام المطلق، وبالشكر المتأمل التام. فكل ما فى الكون يسبح ما خلق الله وأبدع وصوّر، من نبات وجماد وطير وحيوان يسبح بحمده فلتكن إذن تذكرة . فإذا ما عُرض علينا مما نراه فيه . . تفكرنا وتأملنا وشاهدنا . . وإذا استمعنا إلى تلاوة القرآن الكريم بآيات عنه تدبرنا واستوعبنا وشهدنا ، حقا وصدقا . . لا إله إلا الله الحق العليم . . وإن القرآن الكريم هو وحيه على لسان النبی الامین محمد ﷺ . . فهو كتاب الله الكريم، وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾^(١).

المؤلف

دكتور / موسى الخطيب

(١) سورة النمل : آية ٦ .

كل شيء في الكون

يُسَبِّحُ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَيَدْعُوهُ

وَيَشْهَدُ بِقُدْرَتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ

• كل ما فى الكون يسبح لله ويسجد لعظمته :

سبحان من تُسَبِّحُه السموات السَّبع والأرض ومن فيهن . « وإن من شئ إلا يسبح بحمده الله ولكن لا تفقهون تسبيحَهُمْ ، سبحان الله الجليل ، سبحان الله العظيم ، سبحان الله الحكيم ، سبحان الغفور الرحيم ، سبحان الواحد الأحد ، سبحان الفرد الصمد ، سبحان الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن كفواً أحد ، سبحان ذى المُلْك والملكوت ، سبحان ذى العزة والجبروت ، سبحان من تَخَرَّ له الجباه بالسجود ، سبحان الملك المعبود ، سبحان الحى المقصود ، سبحان ذى الكرم والجود .

قال الراغب الأصفهاني : وكل مخلوق وآله نحو الله تعالى ، إما بالتسخير فقط ، كالجملات والحيوانات والحشرات ، وإما بالتسخير والإرادة معا ، كبعض الناس ، ومن هذا الوجه قال بعض الحكماء : الله محبوب الأشياء كلها ، وعليه دلّ قول الله تعالى :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ (١)
وبهذا قطع الله الطريق على كل من يمارى فى تسبيح النبات والجماد.
ولقد أجمل الله سبحانه تسبيح الجمادات وفصله، واستعمل فى ذلك صيغة «سَبَّحَ» وصيغة «تُسَبِّحُ» وصيغة «يُسَبِّحُ».

فمن صيغ الماضى :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢)

ومن صيغ المضارع :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ
وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣)

ومن أمثلة التفصيل قوله تعالى عن الجبال :

﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ (٤)

وقوله تعالى عن سيدنا سليمان عليه السلام : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ
الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ (٥)

(٢) سورة الحديد : آية ١ .

(٤) سورة ص : آية ١٨ .

(١) سورة الاسراء : ٤٤ .

(٣) سورة التغابن : آية ١ .

(٥) سورة ص : آية ٣٦ .

• سبحانك يا رب :

جعلت لكل مخلوق لغته التي يتفاهم بها، وحركاته التي تتناسب وطبيعة جسمه، وأصواته التي تتجاوب مع مادة خلقه، وكل ميسر لما خلق له، أعمى وأعشى وذو بصر ثم رزقاء اليمامة ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١).

لقد توصل العلم إلى إثبات أن الأسماك لها أصوات تسمع، وكذا النمل والحشرات والهوام والدواب والطيور كلها لها لغتها التي تتفاهم بها، وإن كتاب الله الكريم فيه ما يؤيد ذلك، فقد كان سيدنا داود وابنه سيدنا سليمان عليهما السلام يخاطبان النمل والهوام والطيور ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مِنْتُمْ أَنْتُمْ أَنْتُمْ وَأَنْتُمْ أَنْتُمْ﴾ (٢) بل كانا يسيران الجبال، ويحركان الرياح، ويسخران الجان لخدمتهما بإذن ربهما ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ * وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ

(١) سورة فصلت : آية ٢١ .

(٢) سورة النمل : آية ١٦ .

ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿١﴾ . كما أن النار قد تسمع أزيزها وزفيرها، وربما كانت هي لغتها . ألم يخاطبها المولى عز وجل بقوله تعالى ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (٢) . فليس بعزيز على المولى عز وجل أن تكون جميع المخلوقات ناطقه حتى ولو لم يكن لها هدف سوى عبادة الله وتسيبته ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ (٣) ، وأن تكون لغة التفاهم عند غير الإنسان ، من حيوان وحشرات ونبات وجماد، من أحياء مائية وهوائية ونورانية ونارية حسب طبيعة تكوينها، وتبعاً لمادة خلقها، سواء كان هذا النطق بأصوات أو بحركات؛ ملموسة أو غير ملموسة، ظاهرة أو خفية، معلومة لنا ولا يعلمها إلا الله خالقها .

*** لقد أثبت العلم أن البروتونات والإلكترونات التي بالذرة في حالة حركة دائمة، وهذا يثبت أنها - رغم كونها جماد - تتحرك، أى أنها مخلوق حتى له كيانه ووجوده، ثم إذا نحن أزهقناه وفتنناه، فإنه

(١) سورة الأنبياء : آية ٨١ - ٨٢ .

(٢) سورة الأنبياء : آية ٦٩ .

(٣) سورة الرعد : آية ١٥ .

ينبعث منه قوة لا طاقة لنا بها ، أليس فى ذلك عبرة لأولى الألباب .
هذا ولما كان من البديهيات المسلّم بها أن كل حركة لابد أن يكون
لها صوت ، لذلك كان الصوت الصادر من حركة البروتونات
والإلكترونات هو لغة هذا الجماد التى يخاطب بها خالقه سبحانه
وتعالى جل شأنه وعظمت قدرته .

• والرعد يُسَبِّحُ :

﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ ^(١) .

أى يسبح الرعد له تسبيحا مقترنا بحمده والثناء عليه ، وتسبح له
الملائكة ، خوفا من عذابه ، وتسبح الرعد حقيقة دلّ عليها القرآن
فنؤمن بها وإن لم نفهم تلك الأصوات فهو تعالى لا يخبر إلا بما هو
حق كما قال ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبَحُ بِحَمْدِهِ ﴾ ^(٢) .

وفى معنى قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مِنَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ يقول أهل التفسير :

(١) سورة الرعد : آية ١٣ .

(٢) سورة الرعد : آية ١٥ .

أى والله وحده يخضع وينقاد أهل السموات وأهل الأرض ﴿ طَوْعًا
وَكَرْهًا ﴾ أى طائعين وكارهين قال الحسن رضى الله عنه : المؤمن
يسجد طوعا، والكافر يسجد كرها ^(١)، أى فى حالة الفزع
والاضطرار ﴿ وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ أى وتسجد ظلّهم أيضا
لله فى أول النهار وأواخره، والغرض الإخبار عن عظمة الله وسلطانه
الذى قهر كل شئ ، ودان له كل شئ، بأنه تنقاد لجلاله جميع
الكائنات حتى ظلال آدميين وغيرهم، والكل فى غاية الخضوع
والاستسلام لأمره تعالى .

قال تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا
أُمِّمٌ أَمَثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ ^(٢)
والدابة كل ما يدب فوق الأرض، تجمع الحيوان كله العاقل وغير
العاقل وقد سمى الله بعض السور فى القرآن الكريم بأسماء هذه
الحيوانات والحشرات لبيان أهمية ما يُستفاد من وراء هذه التسميات من
معان . . فسمى البقره ، والأنعام، والنحل والنمل، والعنكبوت،
والفيل . . فسبحان الهادى إلى سواء السبيل .

(١) القرطبي : ٩ / ٣٠١ .

(٢) سورة الأنعام : آية ٣٨ .

ومثله قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (١).

قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٢) ويسجد لعظمته كل شئ طوعا وكرها، الملائكة فى اقطار السموات ، والإنس والجن وسائر المخلوقات فى العالم الأرضى ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ ﴾ أى وهذه الأجرام العظمى مع سائر الجبال والأشجار والحيوانات تسجد لعظمته سجود انقياد وخضوع، قال ابن كثير : وخص الشمس والقمر والنجوم بالذكر لأنها قد عبّدت من دون الله ، فبيّن أنها تسجد لخالقها، وأنها مريوبة مسخرة (٣)، والغرض من الآية : بيان عظمته تعالى وانفراده بالوهيته وربوبيته بانقياد هذه العوالم العظمى

(١) سورة النحل : آية ٥٠.

(٢) سورة الحج : آية ١٨.

(٣) مختصر ابن كثير : ٢ / ٥٣٤.

له، وجريها على وفق أمره وتدبيره ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ﴾ أى ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ أى وكثير من الناس وجب عليه العذاب بكفره واستعصائه ﴿ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ أى من أهانه الله بالشقاء والكفر فلا يقدر أحد على دفع الهوان عنه ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ أى يعذب ويرحم، ويعز ويذل، ويغنى ويفقر، ولا اعتراض لأحد عليه.

ومثله قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْبِغْ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ ^(١) أى ألم تعلم يا محمد علما يقينا أن الله العظيم الكبير يسبغ له كل من فى الكون من ملك، وإنس، وجن، ينزّهه ويقدّسه ساكنوها؟! ﴿ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ ﴾ أى والطير باسطات أجنحتها حال الطيران تسبّح ربها وتعبدّه كذلك بلغّة ألهمها وأرشدّها إليه تعالى ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ أى كل من الملائكة والإنس والجن والطير قد أرشد وهدى إلى طريقته ومسلكه فى عبادة الله ، وما كُلف

(١) سورة النور : آية ٤١ .

به من الصلاة والتسبيح ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ أى لا تخفى عليه
طاعتهم ولا تسبيحهم .

فسبحانك يا واسع يا عليم

وسبحانك اللهم ظهرت قدرتك وعظمتك فى مُلكك وملكوتك
وتدبيرك العجيب الأحكام.

بل إن السموات والأرض والجبال ليتأثرن تأثراً شديداً، تكاد تشقق
من هول قول الكفرة اتخذ الرحمن ولدا ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾
﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض
وتخسر الجبال هداً ﴿ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴾ ^(١) ، فما يليق به
سبحانه اتخاذ الولد، لأن الولد يقتضى المجانسه ويكون عن حاجة،
وهو المنزه عن الشبيه والنظير ، والغنى عن المعين والنصير .

وفى مشهد مثير يوم القيامة تشهد حواس الإنسان عليه بما أتى من
أعمال . وما اقترف من أفعال ، فينبغى للمؤمن أن ينتبه فلا يمر عليه
حال إلا وعليه رقيب ! ﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا ﴾ أى حتى إذا وقفوا

(١) سورة مريم : آية ٩١ .

لِلْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) أى نطقت جوارحهم وشهدت عليهم بما اقترفوه من إجمام وآثام، وفى الحديث الشريف « فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ - أَى فَمِهِ - ثُمَّ يُقَالُ لْجَوَارِحِهِ أَنْطَقِي، فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، ثُمَّ يُخْلَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ فَيَقُولُ: بَعْدًا لَكِنَّ وَسْخَقًا، فَعَنْكَنَ كُنْتُ أَنْاضِلُ » (٢) .

وفى هذا اليوم العظيم أيضا تتكلم الأرض بإذن ربها ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ (٣) أى فى ذلك اليوم العصيب - يوم القيامة - تتحدث الأرض وتخبر بما عَمِلَ عليها من خير أو شر ، وتشهد على كل إنسان بما صنع على ظهرها، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قرأ رسول الله ﷺ ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ فقال : أتدرون ما أخبأها؟ قالوا : الله ورسوله أعلم، قال : فإن أخبأها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، تقول : عمل يوم كذا،

(١) سورة فصلت : آية ٢٠ .

(٢) هذا جزء من حديث طويل أخرجه مسلم، وفيه دلالة على أن أعضاء الإنسان تشهد عليه يوم القيامة والله على كل شئ قدير .

(٣) سورة الزلزلة : آية ٤ .

كذا وكذا، فهذه أخبارها « (١) . وفى الحديث الشريف « تحفظوا من الأرض فإنها أمكم، وإنه ليس من أحد عامل فيها خيراً أو شراً إلا وهى مخبرة به » (٢) . ﴿ يَا رَّبِّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ (٣) أى أن ذلك الإخبار لأن الله جلّت عظمتة أمرها بذلك، وأذن لها أن تنطق بكل ما حدث وجرى عليها، فهى تشكو العاصى وتشهد عليه، وتشكر المطيع وتثنى عليه، والله على كل شئ قدير.

وفى السنة النبوية نصوص كثيرة تدعم ما سبق ..
نذكر منها ما يلي :

• تسبيح كل شئ لله تعالى :

أخرج النسائي عن النبى ﷺ أنه قال : قال نوح لابنه : إني موصيك بوصيه وقاصرها كي لا تنساها . أوصيك بإثنتين وأنهاك عن اثنتين : أما اللتان أوصيك بهما فسيبشر الله بهما صالح خلقه وهما يكثران الولوج على الله : أوصيك بـ « لا إله إلا الله » فإن السموات والأرض لو كانتا حلقة قصمتهما، ولو كانتا فى كفة وزنتهما،

(١) أخرجه الترمذى ، وقال : حسن صحيح .

(٢) أخرجه الطبرانى فى معجمه .

(٣) سورة الزلزلة : آية ٥ .

وأوصيك بـ « سبحان الله وبحمده » فانهما صلاة الحق، وبهما يوزن الخلق . . ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَأَتَفَقَّهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (١).

• شهادة العقلاء وغيرهم :

أخرج البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال لأبى سعيد الخدرى رضى الله عنه : أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنت فى غنمك أو باديتك فأذنت للصلاة، فارفع صوتك بالنداء فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن : جن ولا إنس ولا شئ إلا شهد له يوم القيامة . . فقله « ولا شئ » يشمل كل شئ، ويدل عليه رواية ابن جريرة بلفظ « لا يسمع صوته شجر ولا مدر ولا حجر ولا جن ولا إنس إلا شهد له يوم القيامة ».

• الدواب تذكر الله:

أخرج أحمد بسند فيه ابن لهيعة (٢) أن رسول الله ﷺ دخل على

(١) سورة الإسراء : آية ٤٤ .

(٢) هو عبد الله بن لهيعة، صدوق من السابعة، خلط بعد احتراق كتبه، له فى مسلم بعض شئ مقرون، وأخرج له أبو داود والترمذى وابن ماجه، مات سنة ١٧٤ هـ . انظر التقريب (١ / ٤٤٤)، والميزان (٢ / ٤٧٥)، والمجروحين (٢ / ١١) ، والضعفاء الكبير للعقلى (٨٦٧) .

قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل فقال لهم اركبوها سالمة ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسى لأحاديثكم فى الطرق والأسواق فرُبَّ مركوبة خيرٌ من راكبها وأكثر ذكراً لله منه .

• نقيق الضفادع تسبيح لله:

فى سنن النسائى عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما قال : نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفادع وقال نقيقها تسبيح .

• تسليم الحجر على الرسول ﷺ قبل بعثته :

أخرج مسلم عن النبى ﷺ قوله : إنى لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علىّ قبل أن أبعث إنى لأعرفه الآن .

• تسليم الشجر والحجر عليه بعد بعثته ﷺ :

عن الترمذى وحسنه عن على رضى الله عنه قال : كنت مع رسول الله ﷺ بمكة فخرجنا إلى بعض نواحيها فما استقبله شجر ولا حجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله .

• حديث الذئب وشهادته للنبى ﷺ بالرسالة :

حديث صحيح صححه الترمذى وغيره وقد ورد من طرق منها ما أخرجه أحمد بلفظ « عدا الذئب على شاة فأخذها فطلبه الراعى فانتزعها منه فأقعى الذئب على ذنبه وقال ألا تتقى الله تنزع منى رزقا

سأقه الله إلى فقال الراعى : يا عجباً ! ذئب مقع على ذنبه يكلمنى
كلام الإنس ، فقال الذئب : ألا أخبرك بأعجب من ذلك !! محمد .
بيثرب يخبر الناس بأنباء ما قد سبق ، فأقبل الراعى يسوق غنمه حتى
المدينة فزواها إلى زاوية ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره .

وفى رواية أبو نعيم وسندها صحيح قال القسطلانى : فأخبره
وأسلم فصدقته النبى ﷺ ثم قال عليه الصلاة والسلام : إنها أمارات
بين يدي الساعة قد أوشك الرجل أن يخرج فلا يرجع حتى يُحدّثه
نعلاه وسوطه بما أحدث أهله بعد .

• حنين الجذع الذى كان يخطب عليه رسول الله ﷺ :

أخرجه البخارى فى صحيحه عن ابن عمر رضى الله عنهما قال :
كان النبى ﷺ يخطب إلى جذع فلما اتخذ المنبر تحوّل إليه فحنّ الجذع
فأثاه فمسحَ يده عليه .

وفى لفظ للبخارى « فنزل النبى ﷺ فضمه إليه يئن أنين الصبى
الذى يسكن . . وفى لفظ آخر له : فسمعنا لذلك الجذع صوتاً
كصوت العشار ^(١) . . وفى لفظ النسائى : كحنين الناقة الخلوج ^(٢)

(١) العشار : عشت الناقة صارت عُشْرَاء .

(٢) الخلوج : خلع الشئ - خلجا وخلوجا وخلجانا : تحرك واضطرب .

وكان الحسن رضى الله عنه إذا حدث بهذا الحديث يقول : يا معشر المسلمين لخشبة نحن إلى رسول الله ﷺ شوقا إلى لقائه فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه . . وحديث الجذع وحنينه شوقا إلى المصطفى مستفيض مشهور رواه جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم من طرق صحيحة كثيرة حتى ادعى السبكي وغيره أنه متواتر . .

وقال الحافظ ابن حجر : حديث الجذع، نقل نقلا مستفيضا يفيد القطع عند من يطلع على طرق ذلك من أئمة الحديث دون غيرهم ممن لا ممارسة له بذلك .

• تسبيح الطعام :

روى البخارى فى صحيحه والترمذى فى جامعه عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : كنا نأكل مع رسول الله ونحن نسمع تسبيح الطعام .

• تسبيح النبات :

أخرج أبو داود عن النبى ﷺ أنه مرّ على قبرين فقال أنهما يُعذبان وما يُعذبان فى كبير ، أما هذا فكان لا يستنزّه من البول ، وأما هذا فكان يمشى بالنميمة ، ثم دعا بعسيب رطب فشقه أثنين ثم غرس على هذا واحداً ، وعلى هذا واحداً وقال : لعله يخفف عنهما ما لم

بييساً، قيل إن المعنى فيه : أنه يسَّح ما دام رطباً فيحصل التخفيف ببركة التسيح ، ومثله كل ما فيه رطوبة من الأشجار .

وقد ذكر البخارى أن بريدة بن الحصيب صاحب رسول الله ﷺ أوصى أن يجعل في قبره جريدتان . . واستحب بعض العلماء قراءة القرآن عند القبر لهذا الحديث لأنه إذا كان يُرجى التخفيف ببركة تسيح الجريدة فببركة القرآن أولى .

وأخرج مسلم عن جابر رضى الله عنه قال : سرنا مع رسول الله ﷺ حتى نزلنا وادياً أفيحاً^(١) ، فذهب رسول الله ﷺ يقضى حاجته (بين شجرتين) فاتبعته بإداوة من ماء فنظر رسول الله ﷺ إلى إحداهما فأخذ بغصن من أغصانها فقال انقادى علىّ بإذن الله فانقادت معه كالبعير المخشوش الذى يصانع قائدة حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بغصن من أغصانها فقال: انقادى علىّ بإذن الله فالتأمتا، قال جابر : فتتحيث^(٢) مخافة أن يحس رسول الله ﷺ بقربى فيتعد، فجلست أحدث نفسي فكانت منى لفظة فإذا أنا برسول الله ﷺ ، وإذا الشجرتان قد افترقتا فقامت كل واحدة منهما على ساق فلما أنهى إلى رسول الله ﷺ قال : يا جابر ! هل رأيت مقامى؟ قلت : نعم يا رسول الله ، قال : انطلق إلى الشجرتين فاقطع من كل واحدة منهما

(١) كثير الشجر .

(٢) صار فى ناحية .

غصنا قاقبل بهما حتى إذا قمت مقامى فارسل غصنا عن يمينك ،
وغصنا عن يسارك ، قال جابر : فأثيت الشجرتين فقطعت من كل
واحدة منهما غصنا ، ثم أقبلت أجرهما حتى قمت مقام رسول الله
ﷺ ، فأرسلت غصنا عن يميني ، وغصنا عن يساري ثم لحقته فقلت
: قد فعلت يا رسول الله ، فعمّ ذلك؟ فقال : إني مررت بقبرين
يُعَذَّبَان فأحببت بشفاعتي أن يرفه عنهما ما دام الغصنين رطبان» .

• رحمة الله للعالمين وعالم الحيوان والحشرات والطيور والنبات والجماد :

ويحضرنا في هذا المقام رحمته ﷺ بالحيوان ، ووصيته بالرفق به
في الحَضَر والسَفَر . . قال « إذا سافرتُم في الخصب فاعطوا الإبل
حظها من الأرض ، وإذا سافرتُم في الجذب ، فأسرعوا عليها السير
وبادروا بها نقيها ، وإذا عرستم ^(١) ، فاجتنبوا الطريق فإنها طريق
الدواب ومأوى الهوام بالليل » ^(٢) .

عن عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما قال : أردفني رسول الله
ﷺ ذات يوم فأسرَّ إليَّ حديثا لا أحدث به أحداً من الناس ، وكان

(١) نزلتم بالليل .

(٢) رواه مسلم .

أحب ما استتر به النبي ﷺ لحاجته هدفاً (١) أو حابش (٢) نخل ،
فدخل حائطا من الأنصار ، فإذا فيه جمل فلما رأى النبي ﷺ حنَّ
وذرفت عيناه ، فأتاه رسول الله ﷺ فمسحَ ذفريه (٣) فسكت ، فقال :
من رب هذا الجمل ؟ لمن هذا الجمل ؟ فجاء فتى من الأنصار فقال :
أنا يا رسول الله ، فقال : أفلا تتقى الله في هذه البهيمة التي ملكك
الله إياها فإنه شكاً إلى أنك تجميعه وتدنيه (٤) . ومن رحمته ﷺ
وصاياه لأصحابه رضوان الله عليهم بأن يحسنوا الذبحة ، ويحدوا
الشفرة دون أن تراها البهيمة . .

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلاً أضجع شاة ، وهو يحد
شفرتة ، فقال له النبي ﷺ « أتريد أن تميمتها مرتين ، هلا أهددت
شفرتك قبل أن تضجعها » (٥) .

وكما نرى اليوم « مصارعة الثيران » رياضة محببة لنفوس أفقرت
من الرحمة ، وقلوب أجذبت من الرفق ، فهللَّت وشفقت لمصارع
يُردى حيواناً أمام أعينهم قتيلاً ، ورأت بعين القسوة دماء تنزف في

(١) بناء مرتفع .

(٢) النخيل المجتمع المتقاربة .

(٣) العظم الذي خلف الأذن .

(٤) ترهقه .

(٥) رواه أحمد وأبو داود .

ميدان المصارعة نصرًا مبينًا . كذلك كانت العرب تفعل بالحيوان والطير قبل بعث النبي ﷺ حتى نهاها عن هذا القسوة التي دلت على قلوب سكنها الشيطان كما غفلت عن ذكر الرحمن .

فقد نهاهم رسول الله ﷺ عن هذه العادة كما حدثنا ابن عباس رضى الله عنهما وقال : « نهى رسول الله ﷺ عن التحريش بين البهائم » (١) .

ثم بين رسول الله ﷺ أن القسوة في معاملة الحيوان ، وإهمال طعامه وشرابه يورد صاحبه مورد الهلاك ، وقال : « عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار ، لا هي أطعمتها وسقيتها إذ حبستها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض » (٢) .

كما حدثنا رسول الله ﷺ بأن العبد المسلم إن أحسن للحيوان فأطعمه أو سقاه أنعم الله عليه برضاه يوم يلقاه . . وقال : « بينما رجل يمشى فاشتد عليه العطش فنزل بئرًا فشرب منها ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش ، فقال : لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بى فملاً خففه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب فشكر الله له

(١) رواه أبو داود والترمذى .

(٢) متفق عليه .

فَعُفِّرْ لَهُ .. قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ : وَإِنْ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا ؟ .. فَقَالَ : فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ « (١) .

وقد كان للطير حظه من رحمته ﷺ ، لذا أوصى الصحابة رضوان الله عليهم بالرفق ، وأبى على العبد المسلم أن يعيث بالطير حتى يهلكه وقال « من قتل عصفورًا عبثًا عَجَّ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ : يَا رَبِّ إِنْ فَلَانًا قَتَلَنِي عَبْثًا وَلَمْ يَقْتُلْنِي مِنْفَعَهُ » (٢) .

وقد اتبعه الصحابة رضوان الله عليهم ، واهتدوا بهديه ، واقتدوا بسنته فهذ ابن عمر رضي الله عنهما يمر بفتيان من قريش وقد نصبوا طيرًا وهم يرمونه وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم ، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر : من فعل هذا ؟ لعن الله من فعل هذا .. إِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لعن من اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا « (٣) .

ولعل ما يجسّم رحمته ﷺ أمامنا حتى نكاد نلمسها بأيدينا هو ما حدثنا به ابن مسعود رضي الله عنه قال : « كنا مع رسول الله ﷺ

(١) أخرجه البخاري .

(٢) رواه النسائي وابن حبان في صحيحه .

(٣) متفق عليه .

فى سفر فانطلق لحاجته فرأينا حُمْرَةً ^(١) معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة، فجعلت تعرش ^(٢) فجاء النبى ﷺ فقال : من فجع هذه بولديها ؟! رُدُّوا ولديها إليها .

ورأى قرية نمل حرقناها فقال : من حرق هذه ؟ قلنا : نحن ، قال : لا يحرق بالنار إلا رب النار ^(٣) .

حقاً يا رسول الله «لا يحرق بالنار إلا رب النار» ، وليس على المسلمين إلا أن يهيموا فى أنوار رحمتك، فيتراحمون فيما بينهم ، ويرحموا كما هديتهم كل ذى كبد رطبه .

• وبلغت نهاية رحمته ﷺ أنه نهى الإنسان عن لعن الحيوان والجماد :

عن عمران بن الحصين قال : بينما رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره وامرأة من الأنصار على ناقة فضجرت فلعتتها ، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال : خذوا ما عليها ودعوها فإنها ملعونة ^(٤) . قال عمران : فكأنى أراها الآن تمشى فى الناس ما يتعرض لها أحد . .

(١) طائر أحمر اللون.

(٢) كأنها تبنى عشا.

(٣) رواه أبو داود.

(٤) رواه مسلم.

قال النووي : إنما عاقب رسول الله ﷺ المرأة بإرسال الناقة زجراً لها
ولغيرها عن اللعن .

• وفى الأثر :

عن عمرو بن قيس قال : إذا ركب الرجل الدابة قالت : اللهم
أجعله رفيقاً حليماً ، فإذا لعنها قالت : على أعصانا لله لعنة الله^(١) .
وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : ما لعن أحد الأرض إلا قالت :
لعن الله أعصانا لله^(٢) .

وصدق الله الرحمن الرحيم الذى قال فى كتابه الكريم ﴿ وَمَا
أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾^(٣) . لقد رحمت يا نبي الرحمة الكون
كله إنسه وجنّه ، زرعه وضرّعه وطيره حتى الجماد . . ورحمت
برحمة من الله من صاحبك ومن عاداك ، ومن اتبعك واهتدى
بهذاك ، وكما رحمت يا رسول الله من اقتدى بقدوتك ، واستن
بسنك فى دنياك ، أذخرت لهم الشفاعة يوم يلقونك فى أخراك . .
فأنت يا رسول الله فى ظهر الغيب رحمة ، وفى الدنيا رحمة ، وفى
الآخرة رحمة للعالمين .

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه أبى الدنيا .

(٣) سورة الانبياء : آية ١٠٧ .

• ماذا يُستفاد من هذا الآثار ؟

يستفاد من هذه الآثار التي قدمناها ، أن الله تعالى جلّت قدرته قد أودع فى عوالم الحيوان والطيور والنبات والجماد علما خاصا لا نفقهه ، ولا مجال للعقل والقياس فيه خصوصا وأن الآيات والأحاديث سالفه الذكر أفادت أن لكل موجود حياة وتفهما وإحساسا يتلاءم مع جنسه ، وأن الأرض وهى من الجمادات ستحدث يوم القيامة بكل ما حدث فيها وعليها .. ومن خلال ما سبق نعلم أن كل شئ يسجد لله ويسبح بحمده .. وهذا دليل على أن لكل كائن لغة يتخاطب بها مع جنسه وفصيلته ، كما أن له هدفا وحكمة من خلقه وحياته ..

وغايات الخلائق قد تبدو فى ظاهرها أنها متحققه بذاتها خصوصا عند العقلاء ، أى قد يكون للمخلوق العاقل دخل فى تحقيق أمانيه ، وهو ما نسميه بالحركة والعمل ، وقد يقترب بهذين التضرع والدعاء لسرعة الإنجاز ، أو لمجرد الإيجاد كما فى حالات اليأس والقنوط ..

ومن ثمَّ يجوز لنا أن نقول إن من مرادفات الدعاء التسييح والتهليل والتكبير والذكر والتوبه والاستغفار ، بل هى من أرقى أنواع الدعاء .. لهذا اعتبرت كل الكائنات داعية إلى الله تعالى لأنها تخشع ، وتسبح ، وتسجد لله ، وتعبّر بلسان حالها الذى ألهمها وأرشدّها إليه تعالى عما تريد ..

تسبیحُ وبكاء .. وشكرُ ودعاء

• تسبیح وبكاء :

- سبحانك يا من اعترف بفضلك كل حاضر وبادي، واغترف من
بحرك كل رائح وغادي، ونطقت بحكمتك الكائنات .
- * فالسماء تقول : سبحان من رفعني بقدرته ، وأمسكني بقوته ،
فهو ركني وعمادي .
- * والأرض تقول : سبحان من وسع كل شيء علما ، ومهد مهدي .
- * والبحار تقول : سبحان من بمشيئته أجزاني وأسألَ عيوني لورادي
وقصادي .
- * والعارف يقول : سبحان من دلّني عليه ، وجعل إليه مرجعي
ومعادي .
- * والعالم يقول : سبحان من فتح مسامع أفهامي ، ووقفني في
أحكامي واجتهادي .
- * والعباد يقول : سبحان من أيقظني الليل، لنيل أوطاري ، وأقامني
لأذكاري وأورادي .
- * والمذنب يقول : سبحان من أطلع علىّ في المعصية، ورآني فسترني
وغطاني، وتاب علىّ لما تبت وهداني وأصلح فسادى .

* يقول النبي ﷺ : « دمعة العاصي تطفئ غضب الرب، ومن ذرفت عيناه من خشية الله ، كان له بكل قطرة من دموعه مثل جبل أُحُد في ميزانه »

* ويقول أحد الصالحين : رأيت شابا حسنا في المنام، فقلت له من أنت ؟ قال : أنا التقوى ، قلت : وأين تسكن ؟ قال : في كل قلب حزين بكاء .

* ويقول الله عز وجل في التوراة : وعزتي وجلالي ألا يبيكى عبد من خشيتي إلا أبدلته ضحكا في نور قدسى ، قُل للبكاكين من خشيتي : أبشروا فإنكم أول من تنزل عليه الرحمة إذا نزلت . قل للمذنبين من عبادى : يجالسوا البكاكين من خشيتي لعلنى أن أصيبهم برحمتي إذا رحمت البكاكين .

ولقد روى أن رجلا من بنى اسرائيل ، كان لا يتورع عن ذنب أبداً فأتته امرأه فأعطاهما ستين ديناراً على أن يفعل بها السوء ، فلما دنا منها، ارتعدت وبكت ، فقال : ما يبكيك ؟ قالت : لأن هذا عمل ما عملته أبداً ، وما حملنى عليه إلا الحاجة . قال : ولم تبكين ؟ قالت : من خشية الله تعالى . فقال : أنا والله أولى بذلك منك ، اذهبي ولك ما أعطيتك . والله لا أعصيه بعدها أبداً ، فمات من

ليته، فرآه أحد أصحابه في المنام، وسأله : ما فعل الله بك ؟ فقال :
جبر كسرى وأسند ظهري وغفر لي .

ويقول الإمام السمرقندي : إن الملائكة تدعو دائما وتقول : اللهم
شفّع البكائين فيمن لم يبك، وما فارق الخوف قلبا إلا خرب .

وإن من أكرم العبادات عند الله البكاء من خشية الله ، فسبحان من
ابتلى عباده بأنواع الابتلاء ، ولم يعف من ذلك المرسلين والأنبياء ،
فآدم عليه السلام بكى أربعين عاما لما أُخرج من الجنة ، وهو أبو
البشر، ويعقوب عليه السلام بكى على يوسف حتى ابيضّت عيناه من
الحزن، وقال لأولاده لما حجّبه عنه ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى
اللَّهِ ﴾^(١) . وداود عليه السلام بكى أربعين يوما على خطيئته ، ولم
يرفع فيها رأسه إلى السماء حياةً من ربه ، وكان من ضمن دعاء النبي
ﷺ : « اللهم ارزقني عينين هطالتين، يكيان الدمع من خشيتك، قبل
أن يكون الدمع دما ، والأضراس جمرا » .

ويقول النضر بن سعد : « ما اغرورقت عين بمائها من خشية الله
تعالى إلا حرّم الله وجه صاحبها على النار ، فإن فاضت على خده
لم يرهق وجهه فترّ ولا ذلّة يوم القيامة ، ولو أن محزوننا بكى من

(١) سورة يوسف : آية ٨٦ .

خشية الله تعالى ، فى أمة من الأمم لرحم الله ببيكائه تلك الأمة ، وما من عمل إلا وله وزن إلا الدمعة فإنها تطفئ بحوراً من النار .

وكان أبو سليمان الداراني إذا بكى ، مسح وجهه ولحيته بدموعه ، فقليل له فى ذلك فقال : بلغنى أن النار لا تأكل موضعاً مسته الدموع . من ذلك نعلم أنه إذا تمكن الخوف من أرض القلوب والضلوع ، جرت سواقي الدموع فسقت بستان الخشية ، فأزهر بالندم ، وأثمر بالتوبة . فالبكاء يطفئ جمر الذنوب ، ويحيى زرع القلوب ، ويصل بك إلى المطلوب .

يقول ابراهيم بن أدهم مرض بعض العباد ، فدخلنا عليه نعوذه ، فجعل يتأسف ويتنفس فقلت له : على ماذا تتأسف ؟ فقال : على ليلة نمتها ، ويوم أفطرته ، وساعة غفلت فيها عن ذكر الله تعالى . . . وقد أوحى رب العزة إلى شعيب : هب لى من رقبتك الخضوع ، ومن قلبك الخشوع ، ومن عينك الدموع ، وادعنى فإنى قريب .

فاملاً يا أخى قلبك بالخوف ، وعينيك بالبكاء . . وناج مولاك . . رب الأرض والسماء فقد أوحى رب العزة إلى موسى عليه السلام : يا موسى ، إنى خلقت فى جوف عبدى بيتاً سميت قلباً ، جعلت أرضه المعرفة ، وسماءه الإيمان ، وشمسه الشوق ، وقمره المحبة ، وترابه الهمة ، ووعدته الخوف ، وبرقه الرجاء ، وغمامه الفضل ،

ومطره الرحمة، وشجره الوفاء، وثمره الحكمة، ونهاره الفراسة وهي الضياء، وليله المعصية وهي الظلمة، وله باب من العلم ، وباب من الحلم ، وباب من اليقين ، وباب من الغيرة، وله ركن من الإنس وركن من الصدق، وركن من التوكل، وعليه قفل من الفكر، وهذا البيت يا موسى لا يطلع عليه أحد غيري، ولقد سأل داود ربه فقال: يا رب لكل ملك خزانة فما خزانتي؟ قال : لى خزانة أعظم من العرش، وأوسع من الكرسي ، وأطيب من الجنة، وأنور من الشمس . . . هي قلب المؤمن .

ولقد مرّ عيسى عليه السلام على رجل يرعى إبلًا ، فوجد بعيراً سمينا يفرح بنفسه ويعض واحداً بعد واحد، فأخذ عيسى بأذنه وقال: إنك ميت، ثم مرّ بعد أيام على ذلك الراعى ، فوجد البعير قد عزل نفسه ، وترك الأكل والشرب فسأل الراعى عنه ، فقال : يا روح الله، لا أعلم إلا أن رجلاً مرّ به وكلمه فى أذنه، فأصابه ما ترى !!
فآه على قلوب أذابها حرُّ الغليل، وآه على نفوس أفاها البكاء والعويل وآه على أكباد لم تتقطع خيفةً من الملك الجليل ، وآه على قلوب لم تتفكر فى يوم الموت والرحيل ، وآه على قسوةٍ سلكت بالقلب إلى النار بثس السبيل .
بكت عيني وحقّ لها بكائها على نفسى التى عصت مولاهما

ومن أولى بطول الحزن منها وبالأثام قد قطعت مداها
فلا تقوى تصدُّ عن المعاصي ولا تخشى إلاله ولا تنهى
توب من الإساءة فى صباح وتنقض قبل أن يأتى مساهها
وتنكث عهداً حيناً فحيناً كأن الله فيه لا يراها
وتبعد عن حقوق الله عمداً وتبغى دائماً مالا وجاهاً

• شكر .. وأوبة .. ودعاء :

يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ
وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ ^(١) ويقول النبی ﷺ : « أربع من
أعطيهن ، فقد أعطى خير الدنيا والآخرة : لسان ذاكِرٍ ، وقلب شاكرٍ ،
وبدن صابرٍ ، وزوجه مؤمنة صالحة تعينه فى دنياء وآخرته » . فالشكر
طاعة مخصصة ، يقدمها الإنسان لله على ما أولاه من نعم ، وما
أجزل له من عطاء ، وهو شريك الصبر فى الفضل والكرامة ، وقرينه
فى الشرف والمنزلة ، ونظيره فى الأجر والثواب . ولأن الإسلام نصفه
شكر ، ونصفه صبر ، وبذلك ذكرهما الله معا فى القرآن الكريم فقال
تعالى : ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ .

(١) سورة ابراهيم : آية ٧ .

والشكر مفتاح السعادة ، وسبب زيادة النعمة ، والحارس الأمين على دوامها ، ومنحه لا يعطيها الله إلا لمن أحبه ، وأستذل على بابه ، لأن من الناس من صح جسمه ، وكثر ماله ، وتعددت أولاده وعظم جاهه ، وأقبلت عليه دنياه ، فبدلاً من أن يشكر واهب هذه النعم ، نجده يطغى ويفجر ويستبد ، وكثيراً ما أثبتت التجارب لؤم هذا الإنسان ونفاقه ، والتاريخ ملئ بهؤلاء الذين أغناهم الله بعد فقر ، فكفروا بنعمة الله وكانوا عليها من الجاحدين

لله قومٌ إذا ما أيسروا فجروا محلى لقاهم إذا كانوا مفاليسا
الفقر يمنعهم من كل فاحشة لولا افتقارهموا كانوا أباليسا
فطوبى لمن لم تغره دنياه وإن أقبلت ، ولم يفتته ماله وإن كثر ، ولم يخدعه جاهه وإن عظم ، وصدق الديان حيث يقول ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ﴾ ^(١) . يقول النبي ﷺ « من أعطى فشكر ، ومنع فصبر ، وظلم فاستغفر ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

إن شكر الله واجب على كل مخلوق ، للإنسان وغير الإنسان : الحيوان والحشرات والطيور والنبات والجماد . . ولكن من الأسف أن الإنسان أفقر المخلوقات جميعاً إلى الله ، لأنك ترى جميع هذه

(١) سورة سبأ : آية ١٣ .

المخلوقات، والتي يسميها الإنسان (غير عاقله) أقوى منه وأهنا منه عيشا، وأهدأ أمنة بالاً، « وأقل تكاليفاً، ولأن ما يحتاج منها إلى الطعام يكفيها أى طعام تجده، ويرويها أى ماء ترده، ويأويها أى مكان تنزل فيه، وجميعها لا يهّمها حر ولا برد، ولا يؤلمها صيف ولا شتاء، ولا يعوزها طبيب ولا دواء، ولا يقلقها حرب ولا سلم، ولا يزعجها غلاء ولا رخاء ومع ذلك فهي تسبّح بحمد ربها بكثرة وأصيلاً، وتشكر فضله فى كل وقت وحين ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ (١) .

أما الإنسان فهو طماع شره، لذلك ما أكثر همومه، وما أشد أحزانه، وما أطول تفكيره فى دنياه، ليله سهر، ونهاره كدر، وصفوه عكر. لا تنتهى مطامعه، ولا تنفذ متاعبه، ولا ينقطع له أصل ولا رجاء. يدفعه الطمع من الخلف، ويصدمه الحظ من الأمام، وقلبه بين هذين الحجرين تتلظى بنار السموم.

يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه « ما من يوم يمر إلا وملك فى السماء ينادى : يا ابن آدم قليل يكفيك، خير من كثير يطغيك، يا ابن آدم بطنك شبر فى شبر فلم تدخل النار؟! يا ابن آدم لو كانت

(١) سورة الإسراء : من الآية ٤٤ .

لك الدنيا بحذاقيرها لم يكن لك منها إلا القوت . يا ابن آدم : أشد الناس غمًا الحسود، وأهناهم عيشا القنوع، وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع . وأعظم الناس ندامة المؤمن المفرط، وما أعز الدرهم أحد إلا أذله الله . وأشد الناس حسرة يوم القيامة من آتاه الله نعمة، فلم يكن أهلا لشكرها . . رحم الله أقواما كانت الدنيا عندهم وديعة، فأدوها لمن ائتمنهم عليها ثم راحوا خفافا فالدنيا لمن تركها، والآخرة لمن طلبها ، وهى دار خراب، وأخرب منها قلب من عمرها، والآخرة دار عمران، وأعمر منها قلب من طلبها .

فبادر أيها المؤمن بالتوبة سريعا إلى الله ، فإن الله عز وجل لو أراد عقوبة المؤمن فى جهنم وتخليده، لما ألهمه معرفته وتوحيده .

يا من أسأ فيما مضى ثم اعترف كن محسنا فيما بقى تُعطى الشرف وابشر بقول الله فى تنزيله إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف يقول النبى ﷺ : « لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع فى جنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد » .

وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « لله أشد فرحا بتوبة عبده المؤمن من رجل فى أرض دويّة مهلكة معه راحلته عليها طعامه

وشرا به فنام فاستيقظ وقد ذهبت فطلبها حتى أدركه العطش ثم قال :
أرجع إلى المكان الذى كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه على
ساعده ليموت فاستيقظ وعنده راحلته عليها زاده وطعامه وشرا به فالله
أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته» .

ويقول ابن عباس : إذا تاب العبد ، تاب الله عليه ، وأنسى
الحفظه ما كانوا قد كتبوا من مساوئ عمله ، وأنسى جوارحه ما
عملت من الخطايا ، وأنسى مقامه من الأرض ، وأنسى مقامه من
السماء ليحى يوم القيامة وليس شئ من الخلق يشهد عليه بذلك .
فهلا أقبلت أيها العاصي ، وقدمت بين يدي الله توبتك ، وتذكرت
قول الله تعالى ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ
أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ^(١) ، وقوله تعالى ﴿ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ
وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى * يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي * فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ
عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ ^(٢) .

فتب إلى الله توبة نصوحا ، وأحمده على ما أفاء به عليك من
النعم ، وهى أجلُّ من أن تُحصى ، وأكثر من أن تُعد ، ولو تأمل

(١) سورة يس : آية ٦٥ .

(٢) سورة الفجر : آية ٢٣ - ٢٦ .

الإنسان فى نفسه ، أى إنسان ، والفقير قبل الغنى ، لوجد أنه يملك من نعم الله ما يساوى الألوف والملايين ، ويكفى أن الله أكرمه بنعمة الدين والإنسانية، وفضَّله على الحيوان، ومنحه عقلاً يرشده إلى الصواب، ولسانا يعبر به عما فى نفسه، ويداً يبطش بها، وقدماً يسعى عليها ، وأذناً يسمع بها الخطاب، وعينا تقوده وتهديه، وسخر له السماء وما فيها، والأرض وما عليها ، وأرسل له الماء والهواء ، وتكفل له برزقه ، وأغناه عما سواه ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (١).

والا فليجبنى أفقركم حالا على هذا السؤال : لو أراد أحد أن يشتري منه عينه أو أذنه بملايين الجنيهات أكان يعطيها له ؟! ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ * وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿ (٢) ولكن، ليت شعرى ، كيف يشكر المخلوق خالقه؟ الحق أقول: أن الشكر يختلف باختلاف النعم، فمن أعطى نعمة الصحة كان شكره أن يعين الضعيف، ويغيث الملهوف، ويستخدم كل عضو فيما خلقه الله له، ومن أعطى نعمة المال، وجب أن يُخرج من زكاته ويصل به رحمه، وينفق منه فى سبيل الخير ما استطاع .. ومن

(١) سورة ابراهيم : من الآية ٣٤.

(٢) سورة العاديات : آية ٦ - ٨.

أعطى نعمة الأولاد فشكره أن يُحسن تربيتهم ، ويعلمهم الدين والأخلاق. ومن أعطى نعمة الجاه ، فشكره أن يقضى حوائج الناس، ومصالحهم بدون إذلال ولا تعقيد.

اللهم أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك .

اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك الحق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، والساعة حق، ومحمد ﷺ حق .

اللهم لك أسلمت وبك آمنت، وعليك توكلت وإليك أنبت، وبك خاصمت وإليك حاكمت، فاغفر لى ما قدمت، وما أخرت، وما أسررت، وما أعلنت، أنت إلهى لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، لك المُلْكُ ولك الحمد ولك الثناء الحسن.

اللهم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة، وأسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى ، اللهم استر عوراتى ، وآمن روعاتى ، واجعل حياتى زيادة لى فى كل خير ، واجعل مماتى راحة لى من كل شر .

اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى .

اللهم إنك تسمع كلامي، وترى مكاني، وتعلم سري وعلايتي،
لا يخفى عليك شيء من أمري وأنا البائس الفقير المستغيث المستجير
الوجل المشفق المقر المعترف بذنبه أسألك مسأله المسكين، وابتهل إليك
ابتهاال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضريع، من خضعت
لك رقبتة وفاضت لك عبرته، وذلّ لك جسمه، ورغم لك أنفه.

اللهم لا تجعلني بدعائك رب شقياً، وكن لي رؤوفاً رحيماً، يا
خير من سئل وأكرم من أعطى. اللهم اجعل التقوى زادنا، واجعل
الجنة مآبنا، وارزقني شكراً يرضيك عنا، وورعاً يحجزنا عن
معاصيك.

اللهم أعني ولا تعن عليّ، وانصرني ولا تنصر عليّ، وامكر لي
ولا تمكر بي، واهدني ويسر الهدى لي، وانصرني على من بغى
عليّ. رب اجعلني لك ذكراً، لك شكراً لك رهّاباً، لك مطيعاً،
مخبتاً إليك أوها منياً.

اللهم تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت
حجتي، واهد قلبي، وسدّ لساني، واسل سخيمة صدري.

اللهم أرحمني بترك المعاصي أبداً ما أبقيتني، وإرحمني بترك ما لا
يعينني وإرزقني حسن النظر فيما يرضيك عني، وألزم قلبي حفظ

كتابك كما علّمتني ، ونور به بصري ، وشرح به صدري ،
واجعلني أتلوه كما يرضيك عني ، وافتح به قلبي ، واطلق به لساني .
اللهم لا خير إلا خيرك ، ولا يسر إلا يسرك ، ولا هدى إلا
هديك ، فأهدني لأحسن الأعمال لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، وجنبني
سيئها وسفاسفها .

اللهم إليك توجهت ، وبك اعتصمت ، وعليك توكلت ، ولك
أسلمت وأنت ثقتي وأنت رجائي ، وأنت ملجئي وملاذئ ، عزّ
جارك ، وجلّ ثناؤك ، ولا إله غيرك ، لك الحمد ولك الفضل ولك
الثناء الحسن ، وصل الله على البشير النذير محمد وعلى آله الطاهرين
وصحبه الطيبين الأبرار وآله وصحبه وسلم ﷺ .

الفصل الثانى

دعاء النمل فى القرآن الكريم

• حديث النملة فى القرآن الكريم :

وردت كلمة النمل فى القرآن الكريم فى سورة كريمة تحمل هذا الإسم فى قول الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ^(١) قال بعض العلماء : سميت النملة بهذا لتنملها، وهو كثرة حركتها.

• نقاط البحث :

- ١ - من هم الذين أتوا على واد النمل، ولماذا ، وأين هذا الوادى؟
- ٢ - من القائلة ﴿ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ ﴾ وهل تكلم معها غيرها، وكيف ساغ لها أن تخاطبهم بصيغة العقلاء؟

(١) سورة النمل : آية ١٨ .

- ٣ - لمن يتوجه النهى فى قولها ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ ﴾ وما المراد بالتحطيم، وما الهدف من مقاتلتها؟
- ٤ - هل تعتبر مقاتلتها هذه دعاء، وما هو موقف سليمان من هذه المقالة وهل استجاب لاستغاثتها؟
- ٥ - ما يمكن استنتاجه من مقالة النملة؟

(١) من هم الذين اتوا على وادى النمل ولماذا، واين هو ؟ :

قال كعب هذا الوادى بالطائف ولكن أكثر المفسرين قالوا بأنه فى الشام ويكثر فيه النمل، والذى أتاه هو سليمان وجنده يشير إلى ذلك قوله الله تعالى : ﴿ وَحَشَرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ (١) . قال مجاهد : جعل على كل صنف وزعه (٢) يردون أولاهها على أخرها لئلا يتقدموا فى المسير وذلك كما يفعل الملوك اليوم وهو ما نسميه فى عصرنا الحاضر باستعراض الجيش، وقد تقدم سليمان الصفوف ووليه الإنس ثم الجن بعدهم ثم الطير محلقة

(١) النمل : آية ١٧ .

(٢) الوازع : الحابس ليعسكر الموكل بالصفوف يتقدم الصف فيصلحه ويُقدم ويؤخر ، والجمع وزعة ووزاع .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٣ / ٣٧١ .

عليهم فاذا اشتد الحر بسطت أجنتها على سليمان لتدفع عنه شدة الشمس.

(٢) **من القائلة :** ﴿ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ ﴾ وهلم تكلم معها

غيرها، وكيف ساغ لها مخاطبتهم بصيغة العقلاء؟

رُويَ عن الحسن أن اسم هذه النملة « حرس » وأنها من قبيلة ، يقال لهم بنو الشيصان وأنها كانت عرجاء وكانت بقدر الذئب، ولعلها تكلمت بهذه امقالة دون غيرها لأحد الأسباب الثلاثة الآتية : (أ) إما لأنها كبيرتهم والمتولية أمورهم والمسئولة عن راحتهم وسعادتهم . (ب) وإما أن تكون نوبة عملها أدركتها حينما أشرف سليمان وجنوده على واديهـم . (جـ) وإما أن يكون نظرها قد وقع على سليمان وجنده صدفه، ولا ينبغي حمل لفظ النملة على الجنس إذ لا نص ولا دليل على ذلك كما أنه ليس من شأن النمل التسبب والفوضى ، وإنما هو فى أعلى درجات النظام.^(١)

الحشرات والنمل (التركيب الوظيفى ودورة الحياة)

وأنت ترى الأرض تزدهم بالحشرات وإنها لكثيرة فيها، وهى

(١) المصدر السابق وانظر عرائس المجالس : ٢٩٧ .

تختلف فى حجمها وأشكالها وألوانها ولها من المنافع العظيمة ومن الأعمال مالا حد له ، وفى الأقطار الحارة تكثر الحشرات الملاءمة للطقس لها وبُعْضُها شديد الإيذاء والأضرار لنوع الإنسان، وليس من السهل أن يأتى الإنسان للحشرات بتعريف جامع مانع وإنما يمكن تمييزها عن سواها من الحيوانات بثلاثة أحوال هى ما يلى : -

الحالة الأولى : أنها على اختلاف أنواعها وأجناسها مكونة من ثلاثة أجزاء :-

(١) الرأس (٢) الصندوق (٣) البطن .

الحالة الثانية : أنها لابد أن تمر فى أدوار تكوينها فى أربعة أدوار :

أ (الدور الأول : أن تكون بيضة .

ب (الدور الثانى : أن تكون دودة .

ج) الدور الثالث : أن تكون «فيلجة» أو «شرنقة» أى أن تنسج على نفسها نسجا حريريا تنام فيه أياما كدودة القز .

د (الدور الرابع : أن تصبح تامة التكوين بأجنحة وأرجل تامة .. الخ .

الحالة الثالثة : أن كل حشرة لها ستة أرجل :

هذه هى الخواص التى اشتركت فيها سائر الحشرات ، وربما كان أنبل الحشرات وأرقاها وأهمها « وأكثرها فائدة النمل »^(١) .

أن فى حياة النمل عظات وعبراً لو تأملها الإنسان لاستفاد منها كثيراً ، ومن أجل ذلك لفت الله أنظارنا إليه فسمى السورة بإسمه . وقد حكى لنا الشيخ محمد عبده أن تغيير مجرى حياته كان بسبب نملة رآها ، فقد ذكر أنه فى فترة تلقية العلم أصابه فى وقت من الأوقات ملل فستهم العلم وجفاه لأنه رأى من نفسه أنه لا يصبر عليه ، فعاد إلى قريته ، وفى الطريق جلس يستريح إلى جوار جدار فرأى نملة تحاول الصعود فسقطت ، ثم حاولت مرة أخرى فسقطت ، ومازالت تحاول الصعود حتى تمكنت من تحقيق هدفها بعد رابع مرة أو خامسها . فأدرك أن ذلك واعظ من الله قدمه له ، فإذا كانت النملة لم تيأس من الفشل ، وما زالت تحاول حتى نجحت ، فلماذا ييأس هو؟ وعاد إلى طلب العلم مرة أخرى . . فكان النجاح والعالم ذائع الصيت .

• مظاهر حياة النمل الاجتماعية :

« والنمل مجموعة من الحشرات الاجتماعية التى تنتمى إلى رتبة

(١) الجواهر فى تفسير القرآن العظيم للشيخ طنطاوى جوهرى : تفسير سورة النمل : ١٥٩ .

الحشرات الغشائية الأجنحة، هذه الرتبة التي تشمل أنواعا عديدة من الحشرات وتُسمى علميا باسم (هيمنوبتيرا) . ويمثل النمل من هذه الرتبة الكبيرة مجموعة من الحشرات تسمى (فورميكوبيديا) . ويعتبرها البعض فوق فصيلة (Super Family) ويقسمونها إلى عدد من الفصائل. فى حين يعتبرها البعض الآخر فصيلة واحدة يعرفونها باسم (فورميسيدا) أو فصيلة النمل، وتنقسم بدورها إلى ثمان عشائر.

وتمتاز النملة بأن الجزء الأمامى من البطن رقيق، وأن قرنى الاستشعار يثنيان على شكل المرفقين، وأن حماتها إذا وجدت فإنها تنبثق من طرف البطن، كما أن قاعدة البطن تتكون من عُقْدَة واحدة أو عقْدَتين، والحراشيف عند قاعدة الأجنحة متعددة. وتضم كل مستعمرة من مستعمرات النمل أنثى واحدة مخصبة أو أكثر وتُعرف باسم الملكة، ويوجد ثلاث ملكات على الأقل فى العش الصغير للنمل، أما العش الكبير فقد يزيد عدد الملكات به عن خمسين ملكة. . ويعجز العلم عن الوقوف عند سر أو أسرار مملكة النمل . فهناك عدة آلاف من الإناث العقيمة التي تُعرف باسم الشغالات أو العاملات، وتمتاز الشغالات أنها عاطلة من الأجنحة، وأنها أصغر كثيرا فى الحجم من الملكات، أما الذكور فهي مجنحة، ولا تظهر إلا فى موسم التزاوج، حيث تقوم بتلقيح الملكات ثم تموت على الفور .

والملكات تكون إناثا مجنحة في أول الأمر، ولكنها تفقد أجنحتها بعد موسم التزاوج بزمان قليل وقبل أن تقوم بوضع البيض. وهكذا نرى أن كلا من مستعمرات النمل تشتمل على ثلاث طوائف هي الإناث والذكور والشغالات، وهذه الشغالات تمر في حياتها إما بطورين أو بعدة أطوار، ولهذا تبدوا على شكلين أو على عدة أشكال، تختلف في الحجم والتكوين باختلاف الوظيفة التي تقوم بها في خدمة المستعمرة ^(١).

(١) مستعمرة النمل ونظام العمل بداخلها :

وتتكون مستعمرة النمل وطبقاتها مما يلي :

- (١) باب المستعمرة (٢) نملة تدخل المستعمرة (٣) الحرس لمنع دخول الغريب (٤) الطبقة الأولى والثانية لراحة العمال صيفا (٥) مكان تناول الغذاء (٦) مخزن تدخر فيه الأقوات (٧) ثكنة لدخول النمل (٨) الغرف الملوكية حيث تبيض ملكة النمل (٩) اصطبل لبقر النمل مع علفه (١٠) اصطبل آخر لحلب البقر (١١) مكان لتفقس البيض عن الصغار (١٢) صغار النمل وبيضه (١٣) صغار النمل (١٤) مشتى

(١) في عالم الحيوان : النمل والنحل للدكتور حسين فرج زين الدين.

النمل (١٥) مشتى الملكة (١٦) جبانة لدفن الموتى « . (١)

٢ - العمل : أما العمل فى عش النمل بل وفى خارجه فيتم تبعا لتقسيم دقيق .. وتوزيع مقصود لتحقيق هدف منشود .. وهذا العمل كله .. تقوم به وحدات وطوائف النمل فى ظل الوحدة والحب . وعنه وفيه يقول عالم الحشرات هيوبر :

« أن سر هذه الوحدة وهذا الحب كامن فى حب النمل المشترك ليرقاته وتفانيه فى رعايتها والمحافظة عليها .. فإن النمل الأم يحب يرقاته حبا لا يوجد له مثيل فى هذا العالم ولهذا فإن النملة الأم قد تضحي بأية أعضاء فى جسمها ولكنها لا تتخلى أبدا عن فيالجها ومن ثم فإنها - أى النملة الأم - تتابع طريقها وهى محرومة من بعض أعضائها ولكنها ترفض الموت قبل أن تطمئن على سلامة يرقتها أو حوريتها » .

إن عمل النمل فى أناقة مساكنه المتعددة الطوابق .. المختلفة الأشكال المتباينة الاتساع بحيث تحقق الأغراض التى بُنيت من أجلها . وكذلك عمله فى جمع الغذاء اللازم للقلعة .. فإن العلماء يُطلقون اسم « قلعة النمل » على مجموعة أعشاشه .. لما بينهما من

(١) الجواهر : مصدر سابق ؛ ص : ١٦٤ .

شبه كبير .. ليس فى حاجة إلى أدلة بعد أن تتوافر للإنسان رؤية هذه الأعشاش على الطبيعة، يدل عليها ثقب فى الأرض حوله كومة مناسبة من تراب ناتج عن الحفر .. فلذا أزاح هذا الثقب كشف تحته قلعة النمل بكل ما فيها وما تحويه ..

٣ - الرياضة فى حياة النمل :

إلا أن العلماء قد أجمعوا على أن النمل شغوف بالمباريات .. والألعاب الرياضية والمنافسات الودية وقد كتب عنها علماء من أمثال فوريل وستامبر وشتاجر .. ويقول العالم هيوبر :

« لقد دنوت فى أحد الأيام من تل نمل كان معرضا للشمس وكان النمل مجتمعاً فى أعداد كبيرة وكأنه أراد أن يستمتع بأشعة الشمس خارج العش . ولم تكن هناك نملة واحدة تعمل حينذاك .. وعندما أخذت أتبع كل نملة على حدة .. رأيتها تقترب الواحدة من الأخرى وهى تحرك قرن استشعارها بسرعة مذهلة .. وأخذت كل واحدة منها تضرب جوانب ورءوس زميلاتهن بساقيها الأماميتين كما لو كانت تدللها وبعد هذه الإشارات الأولية تراجع الجميع . اثنين اثنين .. وارتكزا على سيقانهن الخلفية وأخذت كل نملة تتصارعان احدهما مع الأولى فتمسك بها من فكها الأسفل أو قرن استشعارها ثم تتركه على الفور لتعود إلى الهجوم مرة أخرى ولكنى لاحظت أن هذه

المصارعات والاشتباكات خالية من العنف أو الرغبة فى الإضرار أو الشأر.. وكنت أتردد على هذا التل بكثرة لأراقب ألعاب النمل ومبارياته حتى اقتنعت بصحة استنتاجاتى .

٤ - حرب النمل^(١) :

ومن مظاهر حياة النمل الجماعى وشواهد حياته الاجتماعية، الحرب التى يخوضها النمل فىقول عالم الحشرات «موريس ماترلينك» عن حرب النمل فى كتابه (عالم النمل):

« إن النمل وحده هو الذى يملك جيوشا منظمة فى دنيا الحشرات وهو وحده أيضا الذى يقوم أيضا بحروب هجومية » . وتختلف عادات النمل فى الحرب اختلافا كبيرا كاختلاف أجسامه وأسلحته... والعجيب أن كل نوع من أنواع الحروب التى يمارسها البشر موجود فى دنيا النمل، الحرب المكشوفة والهجوم الشامل والتعبئة العامة وحرب الخنادق والمفاجآت وخطط التسلل وحرب الإبادة والحصار، والاقترحام والهجوم والتقهقر والانسحاب الاستراتيجى وأحيانا النزاع بين الحلفاء إلى غير ذلك من صور وفنون وأساليب ومقدمات ونتائج القتال .

(١) عالم الحيوان بين العلم والقرآن للدكتور عبد الرازق نوفل مرجع سابق، وانظر أيضا الجواهر فى تفسير القرآن الكريم : ص ١٤٤ - ١٤٥ .

إن الغالبية العظمى من أجناس النمل تمنح إلى السلم إلا أن ذلك لا يمنعها عندما تتعرض للهجوم عليها من القتال بشجاعة والدفاع عن جماعتها ببسالة لا يكاد يوجد لها نظير فى الوجود وقلما يهتم المدافعون بعدد المهاجمين أو حجمهم ولهذا يغلب أن يتراجع المهاجمون فى النهاية حينما يتبين لهم عزم المدافعين على الاستماتة فى القتال .

ومع ما يتمتع به النمل من حُسن التنظيم العسكرى والقدرة على القتال إلا أن هذه الحشرة البسيطة تحترم ملكية الغير .. ولا تُسئ استعمال قوتها، وتتجنب كل أسباب النزاع ومناسباته، وتركز اهتمامها كله فى شئون العش الذى تعيش فيه ..

ولعل أحدث ما نُشر من دراسات عن حياة النمل الجماعية ومعيشتها الإجتماعية بما فيها من حروب وسلام هو ما نشرته مجلة «سلوك الحيوان العلمية الامريكية» عن تجارب علمية قام بها العلماء على حرب النمل حيث صنعوا تماثيل دقيقة مشابهة للنمل التى يتميز بها .. وتحركت تماثيل النمل أمام النمل العادى وانطلقت أفلام التصوير تسجل بالصورة والصوت ... بل وبالرائحة ما كان من جيش النمل عندما واجه ما تخيَّله جيش نمل معاديا .. لقد سجلت الأفلام إشارات خطر أرسلتها طلائع الاستكشاف إلى باقى جيش

النمل وتُحرك كتائب أطلقت غازات خائفة من أنوفها المتخصصة والمجهزة لذلك . ويقول التقرير . .

« إن تقسيم العمل في مستعمرات النمل يرتبط بخصائص بيولوجية واضحة . . الجنود المتخصصة في الدفاع عن المستعمرة يمتازون بأنوف بارزة تنطلق منها روائح أشبه بالغازات الخائفة . . تصيب الغزاة بالإغماء وأحيانا بالموت خنقا . . الأمر لا يقف عند هذا الحد . بل بواسطة أصحاب الأنوف البارزة تنطلق أجهزة الإنذار تنذر بغزو خارجي لتعبئة الجميع في معركة الدفاع عن الوطن . . وإذا كان أصحاب الأنوف البارزة تنحصر وظيفتها في القتال والدفاع عن أرض الآباء والأبناء . . فإن هناك من يتخصص في مختلف الأعمال الأخرى مثل النظافة والبناء والتهوية والإنتاج وغيرها من ضروريات الحياة . . والصفة البارزة للعمال هي وجود الفك الكبير نسبيا بدلا من الأنف البارز عند المحاربة . . وكأن التقسيم الدقيق للعمل خلال مئات الملايين من السنين قد ترك بصماته البيولوجية داخل فصائل النمل في صورة اختلاف في تكوين الرأس والوجه . . وتخصص أصحاب الأنوف البارزة في الحروب التقليدية والكيميائية . . وانفراد أصحاب الفك البارز في العمل اليومي واستخدام أسنانها في القتال عندما تتعرض الجيوش المقاتلة لخطر الهزيمة» .

وقد أُضيفت إلى الدراسات العلمية لحياة النمل الجماعية ومعيشتها الاجتماعية ما أعلنته أخيراً جامعة «ميري لاند» الأمريكية من أن علماءها قد لاحظوا أن النمل يضع الغذاء الذى يعثر عليه فوق أوراق شجرة جافة لتكون كالروافع تماماً مما يساعده على مضاعفة الحمولة . . وقد قام العلماء بتجربة وضعوا فيها قليلاً من الجيلاتين على الأرض فى طريق مسار النمل فذهب النمل للبحث عن أوراق ميتة وعاد بعد ستين ثانية وحمل فوقها الجيلاتين، وعملت كل اثنتين منها معاً لتسهيل عملية النقل . . وأكثر من ذلك فقد لاحظ هؤلاء العلماء أن للنمل أسرى وعبيد . . فبعض الأنواع الصحراوية تبنى خلاقاتها على أحقيتها فى ملكية الأرض بالدخول مع فريق العدو فى مصارعتة . . وفى الجولة الأخيرة يصبح الفريق المهزوم أسيراً للفريق المنتصر ويتحول الفريق بعد ذلك إلى نمل عبيد .

• من عجائات النملة : النملة لا تقترض ولا تحب الاقتراض ..

ولكنها تجود بما لديها لكل من يحتاج إلى الغذاء . . ويرجع ذلك إلى عضو بها . . ذلك هو كيس غير عادى يوجد عند مدخل بطن النملة ويمكننا أن نطلق عليه «الكيس الاجتماعى» . . ويوضح هذا الكيس الناحية النفسية والخلقية فى حياة النملة . . وهذا الكيس ليس معدة للنملة . فهو لا يحتوى على غدد هضمية ولكنه يحفظ الطعام

المكسب بداخله سليما .. على هيئة سائلة سكرية .. ولذلك يمكن أن نطلق عليه أبريق السكر أو الزجاجاة الجلدية .. وهذا الكيس منفصل تماما وبطريقة تثير الدهشة عن معدة النملة .. ولا يصل الغذاء إليه من المعدة إلا بعد انقضاء عدة أيام .. يكون قد تم هضمه .. وحصلت النملة على ما يسد جوعها منه .. وما تبقى تخزنه في هذا الكيس ومن العجيب أن هذا الكيس مطاط بشكل مدهش ويشغل أربعة أخماس مساحة المعدة وهو يدفع جميع الأعضاء الأخرى جانبا .. كما أنه قابل للتمدد إلى درجة تجعله يبلغ حجمه ثمانى أو عشر مرات حجم المعدة وإذا كانت الأسطورة تقول « إن النملة لا تقترض » فإن هذا صحيح تماما .. لأنها ادخرت ما تحتاج إليه من الغذاء في قابل الأيام .

• التكافل الاجتماعى فى حياة النمل :

يقول عالم النمل « موريس ماترلينك » : « لقد دلت الدراسات والملاحظات على أن النملة هى بلا منازع أنبل وأسخى وأشجع وأخلص وأكثر مخلوقات هذه الدنيا إثارة للغير .. فهى تقدم كل ما لديها بلا تدبر أو تفكير ، كما أنها لا تطالب بالوفاء أبداً ، فالنملة لا تملك شيئا حتى ولا محتويات جسمها .. وهذا الكيس الاجتماعى

إنما هو عضو الإحسان فيها .. فكل متعتها هي أن تقدم منه لكل من يحتاج إليه من الغذاء « (١) .

ولقد تعددت الدراسات على سلوك النملة بالنسبة لهذا الكيس الاجتماعي .. وكيفية تعامل النملة مع غيرها به فوصل العلماء إلى ما يحير العقل ويثير الدهشة والإعجاب بهذا الكائن الصغير الذي يتكاثر من حولنا وينزل في بيوتنا ويقتحم علينا خلوتنا .. ويظل يروح ويغدو من أماننا وكأنه يريد أن يوجه نظرنا إلى بعض جمال صنع الله ودقته .. ومظاهر اتقانه الخلق وشواهد عظمته .. وإلى بعض ما هو عليه من خلق .. وما كتبه الله فيه من سلوك .. يعجز البشر عن التمسك به .. ولا حتى الدعوة إليه .

فقد وجد أن النمل في العش الواحد .. إنما يأكل جميعه من غرف التخزين .. ومن كميات الأكل المتاحة دائما أمام سكان العش .. فلا خوف على نملة من جوع وزميلتها على شبع .. فكل أفراد العش في الأكل على حالة واحدة .. ويكون الكيس الاجتماعي الذي تحتفظ به النملة إنما هو لتغذية نملة من غير عشها .. من مستعمرتها .. أو من غيرها .. من البعيد أو القريب .. من الأليف أو الغريب .. ويصل من خلق النمل وطيبته إلى أنه يقدم هذا الغذاء

(١) عالم الحيوان بين العلم والقرآن للأستاذ الدكتور عبد الرازق نوفل : مصدر سابق .

من الكيس الاجتماعى للنمل العدو .. أو المهاجم الغريب .. فعندما تجد النملة .. نملة أخرى جاءت لتهاجمها . تبدأ أولا فى تحسس معدتها .. فإن كانت على شبع بدأت القتال وإلا .. قدمت لها الغذاء من كيسها حتى تأكل وتشبع وتطمئن النملة على ذلك .. فتحاربها .. حتى تكون معها .. على سواء .. فلا يتدخل الغذاء فى سير القتال .. فيكون النصر به .. والهزيمة بغيابه .. لأن الغذاء هو رزق الله الذى ساقه وقدره لكل خلقه .. فلا يجوز أن يُستغل فيضغظ به .. أو يُحارب عليه .. وأيضا تطمئن النملة اذا قتلت عدوتها .. أنها ماتت على شبع ولم تكن فى حاجة إلى طعام . وإذا لم تهزمها وفّرت .. فعلى خير وسلام ..

ومن ضمن ما وصلت إليه الدراسات العلمية فى هذا الشأن .. أن النملة لا تسأل من تقابله سواء كانت زميلة أو عدوة .. عن جوعها أو شبعها .. فقد يخرجها سؤالها .. وقد تستحيى النملة الأولى فلا تعلن عن واقع حالها .. ولذلك فإن النملة تتحسس بنفسها معدة صديقتها أو عدوتها حتى تدرك حقيقة شبعها .. أو درجة جوعها .. ويتم ذلك بقرون الاستشعار .. حتى تحس النملة وتشم وترى .. وتتأكد بذلك تأكيدا قاطعا .. من حالة النملة التى أمامها ..

ووضعت النملة أثناء قيامها بتغذية غيرها من الكيس الاجتماعى

.. موضع الفحص العلمى .. والقياس المعملى .. فُوجد أنها تكون على أعلى درجة من السعادة والابتهاج .. وأن هذه الدرجة لم يصل إليها أى كائن آخر فى تعامله مع غيره .. ويقول العالم « أوجست فوريل » : إن النملة وهى تخرج الغذاء من كيسها لغيرها .. يبدو عليها نشوة وتشعر بلذة أكثر من تلك التى تأخذها لنفسها ..

• من عادات النمل :

١ - النوم :

والنمل كسائر الحشرات الراقية الأخرى يحتاج إلى النوم وقد ينام النمل فى أى وقت من النهار، ويبلغ متوسط فترة النوم فى الأنواع التى وقفت فيها هذه الفترة نحو ثلاث ساعات .

وقد تختار النملة مكانها فى حفرة مناسبة فى الأرض فتضطجع فيها فى نومها لا تصحو منه حتى لو مُسَّت أو دُوعبت، ولكن نقرة عالية توقظها فجأة. إذا استيقظت النملة من نومها استيقاظاً طبيعياً سلكت حين صحوها سلوك الثدييات والإنسان. فالرأس ثم الأرجل الست تتمطى وتتمدّد إلى أقصى امتدادها ثم كثيراً ما تهتز وينفجر الفم انفراجاً يُماثل تماماً ظاهرة التثاؤب . ومن الملاحظات الطريفة التى سجلها «مالوكوك» عن مشاهداته على غل الحصاد الأمريكى .

الذى يتميز باختلاف الحجم اختلافاً كبيراً بين الشغالات والجنود فيقول: « إن الجنود أطول نوماً، تستغرق فى نومها استغراقاً عميقاً ولمدة أطول من الشغالات ولا تستيقظ إلا بصعوبة وبطء . وتدل بعض المشاهدات على أن النمل قد وصل إلى درجة عالية من التطور العقلى كما يبدو من أسلوب النمل فى اللهو واللعب، وهذه الرياضة تشتمل بوجه عام على إقامة معارك وهمية فى المصارعة والنزال تدور بين الشغالات من نفس المستعمرة كما سبق أن أسلفنا، ومسلك النمل كمسلك الكلاب عندما تلهو بمعارك وهمية فيما بينها ، وقد يطارده النمل بعضه بعضاً، كما تفعل صغار الكلاب أو كما يلاحق الأطفال بعضها البعض .

٢ - كيف يتخلص النمل من جثث موتاه ؟

وأخيراً يمكن التحدث عن الطريقة التى يتخلص بها النمل من جثث موتاه . فقد أثبت بعض علماء التاريخ الطبيعى القدامى أن النمل يقيم جنازات منظمّة للموتى ، وتحمل الشغالات الجثة اثنتين اثنتين فى حفل المشهد الذى ينتهى سيره إلى مقابر منعزله . ويبدو أن الخيال طغى قليلاً على الحقيقة ولو أنه خيال رائع ، فمعظم النمل شغوف إلى أقصى حد بالتخلص من أى جثة فى مسكنه . فإذا احتبس النمل فى مسكن صناعى ، وحدثت بين أفرادهِ وفاة، حمل

الجثة وراح يرتاد بها فى أنحاء المسكن ، وربما يطول هذا الارتياذ أياما وهو يبحث عن مكان مناسب للدفن .

أما فى الطبيعة فإن المقبرة المعتادة فهى كومة الفضلات والنفايات الخاصة بالمستعمرة ، وعلى ذلك فمن المحتمل أن يعتبر النمل جثث موته محض بقايا . وبذلك ينقلب أمر الاحتفال الجنائزى المقدس إلى مجرد عملية للحفاظ على نظافة المسكن دفعت إليها غيرة النمل التى هى ولا شك ضربٌ من الانتخاب الطبيعى اكتسبه النمل مراعاة لصالح المستعمرة ، ومع ذلك فقد تحقق أن النمل المسترق المعروف باسم « نمل سانجوينيا » يتخذ أمكنة منعزلة لدفن جثث موته وجثث الموتى من الأرقاء^(١) .

وما زال العلم يسعى ويجد ليضيف الجديد من عالم النمل . . ويدعو به إلى الإيمان بالله العظيم . . ويظهر فيه بعض معجزات القرآن الكريم ، لهذا نقول لعلها خاطبتهم بخطاب العقلاء لتفهمهم له ، والله ترجمه بلسان القرآن العربى المبين .

٣ - لمن يتوجه النهى فى « لا يَحْطِمَنَّكُمْ .. » الآية :

قال صاحب المنجد : حطم حطما ، وحطمه كسره ، تحطّم

(١) فى عالم الحيوان : النمل والنحل مصدر سابق .

وانحطم تكسر وانكسر .. وهذا النهى فى الظاهر للنمل وفى الحقيقة هو لسليمان فهو من باب « لا أريناه ها هنا والجملة بدلا من ﴿ ادخلوا مساكنكم ﴾ أو جوابا له .. غير أن أبا حيان اعترض على ذلك بقوله : أما تخريجه على جواب الأمر فلا يكون إلا على قراءة الأعمش فإنه قرأ ﴿ لا يحطمنكم ﴾ بالجزم بدون نون التوكيد ، وأما مع وجودها فلا يجوز ذلك إلا فى الشعر .. قال شيبويه وهو قليل شبهوه بالنهى حيث كان مجزوما ..

وقال مقاتل ^(١) : ثم أحضرها بين يديه وقال لها : حذرت إخوانك ظلمنا والأنبياء لا يظلمون ، قالت : معاذ الله ، قال : فكيف قلت : ﴿ لا يحطمنكم سليمان وجنوده ﴾ ^(٢) فأجابت بجوابين أحدهما : أنها قالت : أما سمعت قولى : ﴿ وههم لا يشعرون ﴾ ^(٣) ، والثانى : أنها قالت : ما أردت حطم النفوس ، وإنما أردت حطم القلوب ، خفت أن يتمنين ما أعطيت فيشغلن عن ذكر الله ﴿ فتبسمن صاحبا من قولها ﴾ قال بعض العلماء ^(٤) : إنما تبسمن من فصاحتها لأنها جمعت فى الآية الفصاحة كلها وذلك لأن

(١) مرآة الزمان : ١ / ٥٠٧ .

(٢) سورة النمل : آية ١٨ .

(٣) زاد المسير : ٦ / ١٦٢ .

قولها يا : نادت ، أياً : نبّهت، النمل : عيّنت ، ادخلوا: أمرت ، مساكنكم : نصت ، لا يحطمنكم : حذّرت ، سليمان : خصّت ، جنوده: عمّت، وهم لا يشعرون : عدّرت. فيالها من غلة زكية؟! وقد وعظت النملة سليمان بفعلها حتى سجد لله شكراً ، وهكذا العاقل يتعظ بغيره ويتواضع لقول من يقدم له الموعدة ، ولو كانت من أقل منه ، ولا يتعالى استكباراً أو عتوا.

وفى حديث ابن عباس مرفوعاً وموقوفاً^(١) « نهى رسول الله ﷺ عن قتل الهدهد والصرد والنحلة والنملة ». فما أعظم رحمته ﷺ وسبحان من أرسله رحمة للعالمين .

وفى الحقيقة أن سليمان لم يرد تحطيم النمل ، وأما ظنت ذلك لأنه قد لا يشعر بوجود النمل فسيطؤه بفرسانه وحوافر خيله ، ولذلك التمس لهم العذرا إن حصل كما بررت صحة ظنها بقولها ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ . . . وهدفها من مقالتها هذه نجاة بنى جنسها وذلك بالاستتار والاختفاء فى المساكن حتى يجاوز سليمان وجنده واديهم وهذا منتهى التعاون . . . وإنه لمثل أعلى على العقلاء أن يدركوه فيكون كل منهم عوناً لأخيه المسلم فيما يجلب له الخير ويدفع عنه الضر ،

(١) انظر مسند احمد : ١ / ٣٣٢ ، ٣٤٧ .

بل لكل مواطن .. فقد أنذرت قومها . وهكذا يجب أن يكون الإنسان فى مجتمعه يحذّر الناس وينبهم .

وكانت لبقه فى إنذارها وتحذيرها، فلم تثر نائرة قومها ضد القادمين ، كما يفعل بعض الناس ، ولكنها فى إنذارها اعتذرت عن إيذاء القادمين من جنود سليمان لقومها قائلة : ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ .

٤ - هل تعتبر مقالتها هذه دعاء ؟

نعم : وذلك من ثلاثة وجوه هى ما يلى : -

الوجه الأول : هذه المقالة فى ظاهرها نداء وطلب وهذا كله هو معنى الدعاء لغة .

الوجه الثانى : هذه المقالة فى حقيقتها استغاثة صارخة رفعتها النملة إلى سليمان عليه السلام ليتجنب واديهم حتى لا يهلكهم ، وإنه ليفهم لغة النمل .

الوجه الثالث : كما أفادت هذه المقالة تضرّع النملة إلى الله تعالى فى أن يسمع سليمان عليه السلام قولها وأن يوفقه فى استجابة طلبها ... كما أفادت أيضا تضرّعها إلى الله تعالى فى أن يسمع النمل صوتها فيستجيب لرغبتها ويدخل مساكنه حيث ينجو من خطر محقق وهلاك مؤكد .. وقولها هذا شبيه بقول الأبوين أو الصديق المخلص

لمن يحب له الخير ويحرص على سعادته وسلامته (إياك الاقتراب من
القطار أو السير وسط الطريق ، أو أن تعبت بالنار ، أو تهمل
واجبك) . . فهذه النواهي وتلكم التحذير دائما يوافقها من صاحبها
الدعاء اللفظي أو القلبى ، وقلما تنفك عنه ، وعلى فرض انفكاكها
عنه فهي تحمل فى طياتها الدعاء ، حيث أن قائلها يرغب فى استجابة
المحبوب المنصوح إلى توجيهه وإرشاده فيسمع أمره ويلتزم نهيه ،
وذلك متوقف على إرادة الله ذلك وتوفيقه له . . وكأن القائل ذلك
يناجى ربه مرددا يا رب لين جانبه ورقق قلبه ورد إليه رشده وعقله
ليستجيب لى ، ويرى رأى وينفذ أمرى ، يا رب احفظه وجنبه
المزلق والبلاء .

٥ - ما هو موقف سليمان عليه السلام من مقالة النملة ؟

لقد سمع سليمان قولها وتفهمه ، ولذا حقق رغبتها وليستغاثتها
فأمر جنده على الفور بالتوقف عن السير عند مشارف الوادى حتى
تمكن النمل من الدخول إلى مساكنه ونجا من خطر كاد أن يودى
بحياته .

ولقد كان قولها هذا سببا فى تبسم سليمان عليه السلام ، وظهر
على وجهه الاستبشار والفرح والسرور بما أطلعه الله عليه دون غيره ،
وضحك تعجبا من حذرهما وتحذيرها والهداية التى غرسها الله تعالى

فيها ، كما سرَّ سرورا عظيما بما خصه الله به من فهم مقاصدها ثم قال : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١) . وقد سبق أن تعرضنا لهذا الدعاء عند أدعية سليمان عليه السلام (٢) . يقول الشيخ طنطاوى جوهرى فى تفسيره (٣) : «أنظر كيف رتب سليمان هذا كله على نعمة العلم بقول النملة، أنظر كيف فرح سليمان، وكيف تبسم فرحا بنعمة الله، والحكمة كأنه يقول: « العلم غاية مطلبى وقد حصلت عليه ولم يبق بعد إلا أن أشكر الله على نعمة العلم بالعمل الصالح الذى ترضاه يا إلهى ، وليس بعد العلم والعمل إلا أن أدخل فى ضمن عبادك الصالحين من آبائى الأنبياء وغيرهم .. »

وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى الصديق الناجى قال : خرج سليمان بن داود عليهما السلام يستقى فإذا غلة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهى تقول « اللهم أنا خلقٌ من خلقك ولا غنى بنا عن سقيك وإلا تسقنا هلكنا .. » فقال سليمان :

(١) سورة النمل : آية ١٩ .

(٢) انظر كتابنا « دعاء الأنبياء والرسل : ص ٢٦٢ .

(٣) الجواهر : مصدر سابق : ص ١٥٧ - ١٥٨ .

« ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم » ^(١) . . وقد ثبت في الصحيح عند مسلم من طريق عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « قرصت نبيا من الأنبياء غملة فأمر بقرية النمل فأحرقت ، فأوحى الله إليه : أفي أن قرصتك غملة أهلكت أمة من الأمم تسبح ؟ فهلا غملة واحدة » ^(٢) .

• ما يمكن استنتاجه من دعاء النملة في القرآن الكريم :

- ١ - النمل أمة من الأمم بدليل الخطاب وبدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ ^(٣) .
- ٢ - أكثر الأمم عددا بعد بنى الإنسان أمة النمل ، كما أنها من أكثر الأمم تعاوناً وحركة ونشاطاً وتنظيماً .
- ٣ - التناوب في العمل من أسباب اتقانه وانتظامه وتطوره ودوامه . . . ولقد ضربت أمة النمل مثلاً رائعاً في هذا .
- ٤ - لكل أمة من الأمم لغتها الخاصة بها حتى لأمة الحيوانات والحشرات والطيور لغة متبادلة بين بنى جنسها .

(١) تفسير ابن كثير (٥٧٣/٣ - ٥٧٤) . البداية والنهاية (٥٧٣/٣ - ٥٧٤) . البداية والنهاية (١٩/٢ - ٢٠)

(٢) المصدر السابق .

(٣) سورة الأنعام : آية ٣٨ .

٥ - لآمة النمل مساكن وغرف بدليل قول النملة ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ وكذا شأن كل أمة .

٦ - على المؤمن استحضار شكر الله تعالى كلما أدرك بعقله وبصيرته نعمة من نعم الله تعالى عليه وذلك من صفات الصالحين .

الفصل الثالث

لُفَةُ النَّمَلِ

• ماذا يقول العلم عن لغة النمل؟

لا نتظر طبعاً أن يكون للحيوانات والطيور والحشرات لغة مكونة من كلمات وجُمْل تستطيع أن تفاهم بها ، ورغمما عن عدم وجود هذه اللغة فإنها تتصل وتجتمع ببعضها ، فلا بد إذن من وجود وسيلة تستطيع أن تفاهم بها .

ولذا فمن المحتم أن يكون للحشرات التى تعيش فى جماعات مثل النمل والنحل ، طرقاً خاصة للتفاهم ، إذ أن معيشتها فى جماعات تتطلب منها الاتصال الدائم ببعضها حتى تستطيع تنظيم حركة مستعمراتها .

وتابع العلماء دراسة هذه اللغة ، فوجدوا أن الحشرات تفاهم فيما بينها وبين بعضها عن طريق الحركة كالاhtزاز أو الرقص بكل أو بعض الجسم أو عن طريق إفراز مواد كيميائية تقوم مكان اللغة فى بيان ما تريد الحشرة إبلاغه لغيرها . . أو عن طريق قرون الاستشعار . .

والمؤكد الذى لا خلاف عليه أن للنمل لغة والخلاف هو على وسيلتها وأجهزتها . . فإذا ما صادفت نملة فى إحدى جولاتها كوماً من الطعام . فإنها تسرع عائدة إلى بيتها وسرعان ما تهرع أسراب النمل صوب الطعام المكتشف ، حتى وإن كان بعيداً عنها ، وحتى لو لم تكن النملة الكشافة فى صحبتها ، فكيف تستدل هذه الحشرات على طريقها ؟

لا ريب فى أن ذلك سرٌ غامض من أسرار الطبيعة الرائعة . لقد حاول كثير من العلماء أن يجدوا لذلك تفسيراً ، ووفقوا إلى معرفة الكثير من سلوك النمل . فعندما تعود النملة المكتشفة للطعام إلى عشاها وتقابل نملة أخرى ، تحدث بينهما لمسات تنقل المعلومات المعينة الدقيقة التى تشير إلى موقع الطعام المكتشف . والرأى السائد اليوم لدى العلماء الذين يعتبرون حُجة فى شئون النمل ، أمثال العالم «شنيورى» هو : أن النملة التى وجدت الطعام لا تفعل سوى نقل إحساساتها بأن تندفع متبادلة اللمسات مع كل نملة أخرى تصادفها .

• كيف يعرف النمل الوجود فى العش طريقة ؟

لقد توصل بعض الباحثين إلى معرفة سر ذلك ، إذ تبينوا أن أفراداً من فصائل النمل تتأثر باكتشاف الطعام وتفرز غددها الشرجية مادة

نفاذة الرائحة فى صورة خطوط تمتد مباشرة من المكان الذى يوجد به الطعام إلى العش .

ولقد أكد أحد الباحثين أن جموع النمل الأخرى تتبع تلك الآثار، وذلك بتجربة بسيطة أجراها فى المعمل، وفيها غطى المسافة التى تفصل بين الطعام والعش بالورق، وبعد أن هرعت النملة التى اكتشفت الطعام عائدة إلى عشها مارة فوق هذا الورق، أسرع العالم «واستبدل بالورقة التى توجد عليها آثار المادة القوية الرائحة ورقة أخرى جديدة ، وعندما اندفعت جموع النمل خارجة من العش صوب الطعام أخذت تتشمم هنا وهناك على غير هدى، بحثا عن الآثار ، وسرعان ما تشتت شملها، أما العدد القليل منها الذى تمكن من الاستدلال على الطعام فالواقع أنه لم يعثر عليه إلا بمحض الصدفة» (١).

وكذلك فإن السرعة التى يجمع النمل بها شتاته للدفاع عن جماعاته عندما تُهاجم تثبت استعداداه لنشر الأخبار فيما بينه عندما تدعو الحاجة إلى ذلك . وجميع النمل قد منح بسخاء حواسا للمس والشم والذوق، وأعضاء الشم الطرفيه تقع أيضا على قرون

(١) الجانب الإنسانى عند الحيوان . تأليف فانس باكارد ترجمه سعد غزال مراجعة الدكتور انور عبد العليم : ص ١٤٧ - ١٤٨ .

الاستشعار مختلطة تماما مع أعضاء اللمس، وفي الحقيقة إن فاسمان «Eric Wasmann» قد أطلق على قرون الاستشعار اسم « الأنوف اللامسة» لأن باستعمالها يمكن للنمل ليس فقط أن يتبادل فقرات الأخبار بل يعرف أيضا زملاء السكن برائحتها الخاصة. فالتقاء الأصدقاء يعطى النمل رضا واضحا ، وكثيراً ما تتوسل نملة لأخرى لتأخذ منها طعاما ، أما إذا التقى الأغراب أو الأعداء فإنها فى الحال تتوعد بعضها البعض بفكوك مفتوحة. وبالمثل فإن الكثير من النمل يعتمد كثيراً على حاسة الشم عندما يقتفى أثر الطعام، ولكى يعرف طريقه فيما حوله غير أن بعض النمل الذى له عيون قوية يعتمد على النظر إلى حد ما ، ولكن هذا النوع الأخير على أحسن الأحوال يكون ضعيف الإبصار . وقد لاحظ « دونيسثورب» مراراً إحدى شغالة غمل الخشب وهى تتبع خنفساء صغيرة فوجد أنها تفقد أثرها بالنظر ثم تجرى على غير هدى إلى ما بعد فريستها المقصودة. ولكن «لورد أفيورى» قد أوضح أن النمل يشعر بأشعة الطيف فوق البنفسجية ويتجنبها، كما أثبت أوجست فوريل «Auguste Forel» أن النمل يفعل ذلك بفضل العيون وقد عرف ذلك بتغطية هذه الأعضاء بطلاء غير شفاف. ويقال إن بعض أنواع غمل الأشجار يدق برءوسه على الأوراق وعندما يقوم عدد كبير منه بهذا العمل فى وقت واحد فإنه ينتج صوتا مسموعا كدقات الطبول يُعتقد أنه يعمل كإنذار أو

إشارة خطر . ومعظم الأنواع مزودة بجهاز للصرصرة - أى مبرد ومحك - عند قاعدة البطن ، وكذلك بعضو يشبه الأذن . يماثل الموجود عند صرصور الحقل والنطاط ذى القرون الطويلة - إما فى سوق الأرجل وإما فى أى جزء آخر من الجسم وهذه الأعضاء تبين أن أصحابها لها القدرة على إحداث الأصوات وتمييزها ولكن « لورد أفيورى » على الرغم من الاختبارات المتكررة فقد فشل فى الحصول على أى برهان يثبت أن النمل المستعمل فى تجاربه قد شعر بأى من تلك الأصوات التى صمّمها ببراعته المتناهية ، ومن أجل ذلك فقد استنتج أن الطاقة السمعية للنمل تقع كلية خارج مجال سمع الإنسان . وقد أوضحت الاختبارات الحديثة أن النمل قد يكون أكثر حساسية لاهتزازات الجوامد منه لاهتزازات الهواء ، ولكن بعض المراقبين يصرون على أنه يدرك الاهتزازات الهوائية بدرجة أقل .

ولتلخيص سيكولوجية النمل ما له وما عليه استنتج «دونيسثورب» أن هذه الحشرات « تمتلك حواساً تماثل حواسنا فى الأثر وليس فى الدرجة وهى فى الكثير من أفعالها تكون متأثرة بالتعليم والخبرة والذاكرة »^(١).

(١) المجتمعات الحشرية : تأليف هارولد باستن ترجمة الدكتور محى محمد إبراهيم .
مراجعة الدكتور محمود حافظ : ص ١٧٣ - ١٧٤ .

• التعليم والتقليد وأثرهما فى حياة النمل :

أما فيما يتصل بالتعليم والتقليد فإن أعلى طبقات الحشرات الاجتماعية يظل دون مستوى أى حيوان ثدى مثل الكلب . والنمل فوق ذلك حيوان بالغ العناية بالنظافة ، وليس عنايته بالنظافة مقصورة مع ذلك على ما يتصل بجسم كل نملة بذاتها ولكن طبيعة النمل الاجتماعية تدفع كلا منها إلى تبادل المساعدة والتعاون فى الأمور التى تتصل بالتجميل والزينة .

وقد روى العلامة «مالوكوك» رواية عن نمليتين فى عملية التجميل بين النمل المعروف باسم أنا «Atta» الذى يتولى تربية الفطر فقال : «إن إحدى النمليتين تولت عملية التجميل للأخرى وذلك بأن بدأت أولا بالوجه فلعقته تماما حتى أن عنايتها تناولت الفكوك ، ثم بعد أن انتهت من تنظيف وجه زميلتها انتقلت إلى الصدر ثم إلى الخاصر ثم تناولت بالتنظيف الرجل الأولى ثم الثانية والثالثة . وانتقلت منها إلى السطح الظهرى لزميلتها إلى أن وصلت إلى الرأس . وكان سلوك الزميلة فى هذه الأثناء ينم عن رضا بالغ وغبطة وارتياح مشابها للمشاعر التى تبدو على أحد الكلاب المنزلية عندما يداعبه صاحبه باليد على رقبته والعبث فى رقبة شعره وتمد الزميلة أرجلها ، وعندما تحس الصديقة الإمساك بها ، تسلمها إليها فى استرخاء ومطوعة

وإذعان لرغبات الصديقة وهي تميل بجسمها فى لطف ورقة إلى أحد جانبيها ومع استرخاء أرجلها تبدى صورة كاملة للاستسلام دون حركة، وقد رأيت نملة تركع أمام نملة أخرى وتدفع رأسها إلى الأمام وهي منحنية إلى ما دون مستوى وجه زميلتها ، وتظل كذلك ساكنة لا تبدى حراكا معبرة بذلك عن رغبتها فى أن تجرى لها عملية التجميل ، وقد فهمت معنى هذه الإيماءة كما فهمتها المقصودة بالضراعة والتوسل لأنها بدأت فى التواقيع بعملها من تجميل .

• ذكاء النمل :

وهناك الكثير من القصص التى تُروى عن ذكاء النمل، وأن هذا الذكاء يعتمد فى الغالب على المحاولة أو يرجع إلى التكيف الغريزي مع الظروف الشاذة فى البيئة ، وهناك روايات صحيحة تُروى عن النمل الزحاف فيما يتصل بقدرته على عمل جسر حى من النمل عبر المجارى المائية ، وذلك بأن تمسك إحدى الشغالات بطرف أحد الغصون ثم تأتى شغالة أخرى لتمسك بها ويتلوها عدد كبير يمسك بعضه ببعض حتى إذا تكونت منها جميعا سلسلة طويلة أمكنها أن تصل إلى طرق غصن آخر فى الشاطئ المقابل أو تتصل بأرض الشاطئ وعلى هذا الجسر الحى تعبر بقية أفراد النمل إلى الجانب الآخر من المجرى .

وقد سجّل العلامة « بيتس » إحدى مشاهداته فقال : إن بعض أنواع نمل أمريكا الجنوبية كان طريقه يمر عبر قضبان الترام وبعد أن سحق الترام عدداً كبيراً من النمل تحت عجلاته عمد النمل إلى عمل أنفاق تحت القضبان ليأمن خطر الترام وعندما قام بيتس «Bates» بسد هذه الأنفاق لم يجرؤ النمل على المرور فوق القضبان وأثر الانتظار حتى أنشئت أنفاق أخرى جديدة فاستخدمها في العبور .

وقد روى الكردينال «فلورى» بعض مشاهدات العلامة الشهير «رومير» عن النمل وكيف أنه استطاع أن يتخطى نطاقاً من المحيط طلى به جذع إحدى الأشجار . والمحيط مادة نباتية لزجة تُصاد بها الطيور ويُعرف أيضاً باسم الدبق . وقد استطاع النمل أن يجتاز هذه المادة اللزجة بأن أنشأ عليها طريقاً من التراب والحصى الدقيق ^(١) .

وقد تأيدت هذه الحقيقة وثبت صحتها في السنوات الأخيرة، فقد ذكر أحد المراقبين أنه شاهد أن النمل بعد أن حوَصِرَ في نطاق من مادة القطران على جذع إحدى الأشجار فإنه استطاع أن يتخطى هذا العائق على أشلاء حشرات المن التي تتغذى بعسلها . وقد وقع نمل

(١) سجل عالم الحشرات الفرنسي الشهير « رومير » هذه المشاهدات في كتابه المسمى «مذكرات عن تاريخ الحشرات» الذي صدر حوالى منتصف القرن الثامن عشر في ستة مجلدات .

آخر فى مثل هذا المأزق فلم يحاول اقتحامه بل صعد إلى أطراف شجرة وألقى بنفسه من الفروع . هذا مع أن النمل الذى استخدمه «لورد أنيرى» فى تجاربه امتنع عن أن يُلْقَى بنفسه من علو نصف بوصة . وربما يرجع ذلك إلى أن هذا النمل ينتمى إلى نوع من النمل ضعيف البصر ، وليس من طبيعته التجوال على عكس النمل الزحاف.

وقد فاضت السجلات العلمية بالتجارب المعملية التى أجريت على النمل لاختبار ذكائه وثبت هذا الذكاء بمثل ما يقوله « ألن ديفو» بعنوان ذكاء النمل عن تجربة أجريت فيقول:

« أخذ صديق لى من علماء الطبيعة يطنب يوما فى الحديث عن ذكاء النمل . فتحدثته بقولى «أراهنك بمائة ريال أنى أستطيع أن أضع طعاما فى إناء مفتوح فيظل كذلك أسبوعا دون أن يستطيع النمل أن يصل إليه» ففكر هنيهة فى الأمر ثم قَبِل الرهان بعد أن اشترط على أن لا أستعمل أى نوع من أنواع السم . . فوضعت طشت غسيل على أرض المطبخ وصببت فيه الماء حتى بلغ نصفه . . ثم وضعت فى وسط الطشت مصباح زيت قديما . ثم أخذت فطيرة حلوة موضوعة فى طبق غسل فرفعتُها فوق المصباح . . ثم جثت بغذاء لا يجف فطلبت به جزءا مما ظهر من المصباح فوق الماء . . وجعلت الطلاء

خطا عريضا يدور بالمصباح .. وكذلك فعلت بظاهر الطشت وقلت
لنفسى لن تصل ثملة إلى ذلك الطعام .. ودخلنا المطبخ بعد أسبوع
فوجدت الطعام يعج بالنمل فلقد اقتحم النمل شريط الغذاء صفوفا
صفوفا .. رقدت فيه واحدة تتلوها أخرى من طرف إلى
طرف .. وجعلت أجسامها جسدا يعبر عليه غيرها إلى الطشت
وجمعت النمل عند الماء قطعاً من القش الصقت بعضها ببعض
بمادة خاصة تفرزها وأقامت جسراً عظيماً يمتد من حافة الماء إلى
المصباح .. واعترفت له بإخفاقى ولكن صاحبي العالم لم يكتف
بذلك وأشار فى سرور إلى فوق وقال : « لقد كان للنمل طرق أخرى
إنها لا تحب أن تسير مقلوبة على السقف ولا تحب أن ترمى بنفسها
من أعلى ولكنها تفعل ذلك إذا كان الطعام مغرياً .. فنظرت إلى
السقف ورأيت النمل تسير مقلوبة عليه . ثم تقف فوق الطعام
بالضبط ثم ترمى بنفسها على الطعام واحدة بعد الأخرى بدقة لا مثيل
لها » .

ويدل نشاط النمل فى عملية البناء على امتيازه بقدر معين من ذكاء
يتصل باختيار الوسائل الملائمة للبيئة والمضى بها إلى نهايتها ، إلا أنه
يوجد عند النمل أيضاً موهبة غريزية فى البناء تفوق مدارج الذكاء
بكثير (١) .

(١) فى عالم الحيوان : مصدر سابق وأنظر الجواهر : مصدر سابق أيضاً .

وهذا يثبت ويؤكد ذكاء النمل . . والمشاهدات العلمية البصرية تؤيد ذلك . . مثل ما يقوم به النمل من فلق الحبوب قبل تخزينها فى مخازنه حتى لا تنبت . . وفلق حبوب الكذبرة إلى ثلاثة أقسام أذ أنها تنبت أذا قسمت إلى قسمين . . وأما الحبوب التى لا يستطيع فلقها . . فإنه يعتمد إلى نشرها فى الشمس بصفة دورية ومنظمة حتى لا يصيبها البلل أو الرطوبة فتنبت .

ولكن القول الفصل هو ما أثبتته العلم عندما استطاع تشريح جسم النملة ودراسة اجزائها دراسة تفصيلية وتسجيل ما فيها وما بها ومالها . . بالاستعانة بأجهزة الفحص والتصوير الالىكترونى . . واستخدام الأشعات المختلفة . . فوجد أنها تمتاز بوجود مخ عجيب يؤكد ذكاء رهيبا . . فهو رغم صغر حجمه اذ يقل عن المليمتر . . فلا يرى إلا تحت المجهر . . يتكون من فصين رئيسيين كمخ الانسان وبه مراكز عصبية وخلايا إحساسية كما فى الانسان كذلك . . ألا أنها تتميز عن ما فى الإنسان فى أن الخلية العصبية الواحدة فى مخ النمل تختص بكل وظائف الحواس من بصر وسمع وشم وحركة . . وأن به كذلك مادة النباهة والذكاء . . على شكل أجسام دقيقة مغمورة فى سوائل ودهون .

وفى المعارك التى تشب بين مستعمرات مختلفة من نوع واحد من

النمل لا يمكن التمييز بين الأصدقاء والأعداء بعلامات ظاهرة كما أنه لا توجد أصوات تصدر منها أثناء المعركة ويبدو أنه مجرد لمسة من قرون الاستشعار كافية للفصل بين الصديق والعدو . (١)

• قرون الاستشعار تلعب دور عضو التخاطب :

كما أن قرن الاستشعار . . . يلعب أيضا دور عضو التخاطب . . . وقد أجرى السيد «جون لوبوك» العالم الحشرى الكبير تجارب دقيقة حاسمة فى هذا المجال وفيما يلى إحدى هذه التجارب التى يمكن اجراؤها بسهولة . . . ضع فنجانين صغيرين على مسافتين متساويتين من عش نمل . . . وضع فى الأول خمسين يرقة أو حورية . . . وفى الثانى ثلاثا أو أربعا فقط . . . ثم ضع بعد ذلك غملة فى كل فنجان . . . وستلاحظ فى الحال أن كل غملة حملت يرقة أو حورية وذهبت بها إلى العش . وبعد قليل سترى أن عددا أكبر من النمل بدأ يجرى إلى الفنجان المحتوى على اليرقات الكثيرة ليعاون فى نقلها إلى العش . . . بينما لا يذهب إلا عدد قليل من النمل إلى الفنجان الذى لا يوجد به غير ثلاث أو أربع يرقات . . . ويدل ذلك بلا ريب على أن النملتين اللتين نجحتا فى جعل رفيقاتهما تعلمن أن هناك عملا أكثر إلحاحا فى

(١) فى عالم الحيوان : مصدر سابق وأنظر الجواهر : مصدر سابق أيضا .

اتجاه يختلف عنه فى الاتجاه الآخر . . وأجرى «لوبوك» تجربة أخرى إذ لاحظ أن نملة منهمكة باستمرار فى نقل اليرقات إلى عشاها . . فلما جاء الليل حبسها فى قنينة ثم أطلق سراحها فى صباح اليوم التالى فاستأنفت أعمالها فى التو . . وفى الساعة التاسعة صباحا عاد «لوبوك» فحبس النملة ثم أطلق سراحها بالقرب من يرقاتها فى الساعة الرابعة مساء ففحصتها بعناية شديدة ولكنها عادت إلى عشاها بغير أن تأخذ أية يرقة معها . . وفى تلك اللحظة لم تكن هناك نملة واحدة خارج العش ومن ثم عادت النملة التى تُجرى عليها التجربة من العش ومعها ثماني نمالات من زميلاتهما . . وتقدمت الجماعة إلى كومة اليرقات . . وبعد أن قطعت ثلثى المسافة حبس «لوبوك» النملة التى يجرى عليها التجربة مرة أخرى وبعد دقائق قليلة من التردد عاد النمل الآخر إلى العش بسرعة غريبة . . وفى الساعة الخامسة أطلق لوبوك النملة الحبيسة فعادت إلى العش مرة أخرى وهى خالية اليدين . . ولكنها لم تبق هناك لحظات قليلة وخرجت من العش ومعها ثلاث عشرة من زميلاتهما مما يقطع بأنها أبلغتهم بوجود اليرقات . . فهل تتم مثل هذه الاتصالات بقرن الاستشعار وحده ، أم أن للنمل وسائل أخرى للاتصال ؟! . .

ومن المحقق أن نداء الخطر عندما يتعرض العش لهجوم أو يحدث

فيه أى اضطراب ينتشر بسرعة البرق الخاطف بحيث أننا نضطر إلى القول بأنه راجع إلى انفعالات خلوية معقدة وتلقائيه وجماعيه .. كما يحدث فى أجسامنا عندما يهددنا الخطر أو نُصاب بجرح . إلا أنه بالإضافة إلى هذه الانفعالات الجماعية توجد ولا شك لغة استشعارية تفرّدية .

• للنمل لغة مسموعة ومنطوقة ومفهومة :

واستمر العلماء فى دراسة الحشرات وعلى رأسها النمل .. واختصوا بوسائل التفاهم فيه إلى أن أعلن العالم النمى «لورنتس» أنه بعد دراسة دامت أكثر من عشرين عاما .. على لغة النمل فقد تمكن من تسجيل أصوات النمل وهى تحدث .. وعرف مفردات لغتها .. ويقوم حاليا بتنقية أشرطته وتكبيرها توطئة لتوزيعها على مراكز البحث العلمى فى أنحاء العالم .. إذا فقد ثبت بالدليل العلمى المادى والتجريب المعملى أن للنمل لغة منطوقة .. ومسموعة .. ومفهومة .. وهذا ما أدهش العلماء وأثار عجبهم وإعجابهم .. ولا شك أنه سيضاعف من دهشتهم .. ومن عجبهم وإعجابهم أن يعلموا بأن القرآن الكريم وفى آية النمل .. قد قرر صراحة وبوضوح هذه الحقيقة العلمية .. إذ يقرر أن نملة قالت .. والقول إنما يكون بلغة منطوقة ومسموعة ومفهومة ومما يؤيد ويؤكد هذا الهدف من الآية

أن الآية التالية لها مباشرة تقول عن سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام أنه تبسم ضاحكا من قولها . . فيتكرر القول . . فى آية النمل من النملة . . والقول فى الآية التالية إذ يعلن سيدنا سليمان أنها قالت : ونص الآية هو :

﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ ^(١) .

وهكذا أورد القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرناً من الزمان هذه الحقيقة العلمية فى عالم النمل . . والتى لم يصل إليها العلم إلا فى أيامنا هذه وبعد دراسات معملية شاقة وأبحاث علمية جادة . . ^(٢) .

(١) سورة النمل : آية ١٩ .

(٢) عالم الحيوان بين العلم والقرآن : مصدر سابق .

دعاء الهدى فى القرآن الكريم

• حديث الهدهد في القرآن الكريم :

قال الله تعالى : ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (١).

• نقاط البحث :

١ - من قائل هذه العبارة ، وما المقصود منها ، ولماذا قالها؟

٢ - ما نصُّها ، وما مشتملاتها؟

٣ - هل تعتبر مقالته هذه دعاء؟

(١) سورة النمل : ٢٢ - ٢٦ .

٤ - هل استُجِبت استغاثة الهدهد؟

٥ - ما يمكن استنتاجه من دعاء الهدهد فى القرآن الكريم.

١. من قائل هذه العبارة، وما المقصود منها، ولماذا قالها؟

قائل هذه العبارة هو هدهد^(١) سليمان، واسمه عنبر وهو من الطيور، وهى حيوانات فقيرة تضع بيضها الذى يخرج منه صغارها بعد التفريخ، وحيث أنها ترتفع فى الهواء، فقد خلق الله تركيب بُنيتها مناسباً لذلك، فشكّل جسمها بأعظم شكل مناسب تشق الهواء بسهولة، وخلق لها أجنحة بدل الاطراف المقدمة، وليس لها أسنان، وفمها ممتة بمنقار، ويتناول الهدهد طعامه بسهولة بمنقاره المدبب الطويل، ولكنه يقذف بهذا الطعام إلى الهواء قبل أن يلتقطه ثانية فى مهارة بحيث يدخل إلى فمه المدبب طويلاً، إلى معدته القوية جداً وهى «القونصة»، ولها حوصله فيها تلين الحبوب قبل وصولها إلى القونصة، وعلى الرأس تاج من الريش المزركش بخطوط سود وبيض، والقُرْحِيَّة بُنية، والمنقار والقدم سود، والرأس والعنق يميلان إلى الاحمرار، وفى منتصف ريش الذنب شريط أبيض ضيق.

(١) الهدهد : أبو الاخبار (Hoopoe) رتبة الضؤوضويات. فصيلة وجنس الهده (Upupa major) وهو من أوابد الطيور المصرية التى يحميها القانون لتغذيتها على الحشرات والديدان الضارة بالمحاصيل .

والهدهد طائر وَجِل كثير الحذر والتخوف، يهرب لأقل بادرة، وهو أيضا مسالم محبوب لجمال مظهره، وأناقة ريشه، ورشاقه حركاته، وقد كُناه العرب بأبى الأخبار، وتفاءلوا برؤيته.

ويبنى الهدهد عشه فى الجدران وعلى سطوح المنازل، كما يَبنيه على الأشجار، ويتميز العش دائما برائحة نفاذة كريهة، وهذه الرائحة تنقذه وأفراخه من الأعداء حتى أن القطط على تلصُّصها لأعشاش الطيور لا تقترب من أعشاشه. وتضع الأنثى من ٤ - ٧ بيضات بيضاء اللون مرتين كل عام، وبما أوجد الله فيها من قوة الإلهام تصنع أعشاشها، وترقد على بيضها، وتَحْنُ على صغارها. ^(١)

ومنافع الهدهد كثيره فمنه ما يُستعمل لحمه غذاءً وبيضه كذلك، ومنه ما يدفع أضراراً عظيمة مثل إبادة الحشرات والديدان المضرة بالمزروعات. ^(٢)

ومن خاصيات الهدهد أن منحه الله نظراً ثاقباً لاختراق أغوار الأرض مفتشاً عن أماكن الماء فى باطنها . . . يوضح ذلك ما رواه ابن كثير عن ابن عباس رضى الله عنه قال : « كان الهدهد مهندساً يدل

(١) طيور الوطن العربى للدكتور صبحى كامل والدكتور رءوف سلامه : ص ١٧ - ١٧٢.

(٢) الجواهر : مصدر سابق ص : ١٧٩.

سليمان عليه السلام على الماء ، إذا كان بأرضٍ فلاةٍ طلبه فتظر له الماء
فى تخوم الأرض كما يرى الإنسان الظاهر على وجه الأرض ،
ويعرف كم مساحة بُعد من وجه الأرض ، فإذا دلّهم عليه ، أمر
سليمان عليه السلام الجان فحفروا ذلك المكان حتى يستنبط الماء من
قراره ، فنزل سليمان عليه السلام يوماً بفلاة من الأرض فتفقد الطير
ليرى الهدهد فلم يره ...^(١) فقال : مالى لا أراه ﴿ أم كان من
الغائبين ﴾ أم منقطعه بمعنى بل ، أى با هو غائب ، ذهب بدون إذن
منى . وفى قوله تعالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ ﴾ إرشاد للأئمة إلى وجوب
تفقد رعاياهم والمحافظة عليهم ، فهذا الهدهد مع صغر حجمه لم
يخف حاله على سليمان ... ويرحم الله عمر رضى الله عنه حين
قال : لو أن بغلة على شاطئ الفرات عثرت لحفت أن يسأل الله عنها
عمر . فلما تأكد غيابه قال : ثلاث جمل :

الجملة الأولى : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾^(٢) تعددت الروايات
فى كنه هذا العذاب . فقال ابن عباس : يعنى تنف ريشه ، وزاد

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٣ / ٣٧٢ ، وعرائس المجالس : ٣١١ - ٣١٢ ، وزاد
المسير : ٦ / ١٦٤ ، وقارن بتاريخ الطبرى : ١ / ٥٧٦ . روى أن نافع بن الأزرق
سمع ابن عباس يذكر ذلك ، فقال له : قف يا وقاف ، كيف يرى الهدهد باطن الأرض
وهو لا يرى الفخ حين يقع فيه؟ فقال له ابن عباس : إذا جاء القدر عمى البصر .
(٢) النمل : من الآية ٢١ .

عبدالله بن شداد « نَتَف ريشه وتشميسه . . كذا قال غير واحد من السلف إنه نتف ريشه وتركه ملقى يأكل الذرّ والنمل . (١) وهذا فى نظرنا غير مستساغ لأن الهدهد قدّم لسليمان عليه السلام مبررات تغيبه فرضيها، بدليل أنه أرسله بخطابه إلى ملكة سبأ « بلقيس » فهو فى الحقيقة والواقع ما أنزل به عقاباً . وقال يزيد بن رومان فى تفسير التعذيب : هو أن ينتف ريش جناحيه، وقيل : هو أن يحبسه مع أضداده، وقيل هو أن يمنع من خدمته . . وفى هذا كله دليل على أن العقوبة على قدر الذنب لا على قدر الجسم .

الجملة الثانية : ﴿ أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ ﴾ يعنى أقتله .

الجملة الثالثة : ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أى حجة واضحة وعذر مقبول والمعنى أنه يفعل معه أحد هذين الأمرين على تقدير عدم الثالث وهو السلطان المبين والمبررات القوية المعقولة .

٢. نص مقالة الهدهد ومشتملاتها :

فلما حضر الهده من غيبته والى عبر عنها القرآن بقوله : ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أى لبث مدة من الزمن يسيرة، أو مكث مكثاً غير طويل . . ولا مانع من القول بأنه لما رجع ورأى سليمان وقف

(١) المصدر السابق .

غير بعيد منه خصوصا بعد أن أخبرته الطيور عد سليمان له . . يدل على ذلك قول سفيان بن عيينة وعبد الله بن شداد قالوا : « لما قدم الهدهد قالت له الطير ما خلفك فقد هدر سليمان دمك فقال الهدهد هل استثنى؟

قالوا نعم قال ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ قال نجوت إذا . . قال مجاهد : انما دفع الله عنه ببره لأمه «^(١) فإذا قلنا إن هذه طبيعة الهدهد المسألة الوجلة لم نذهب إلى بعيد !^(٢)

فقال الهدهد : ﴿أَحْطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾^(٣)

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : مصدر سابق .

(٢) رأى للمؤلف .

(٣) سورة النمل : ٢٢ - ٢٦ .

هكذا شدَّ الهدهد انتباه سليمان بالجملة الأولى التي أخبره فيها بأنه أحاط بمعلومات ليست في حوزته ثم زاد انتباهه شدًّا مقرونا بالتعجب بالجملة الثانية فأخبره فيها بأنه أتاه بخبر مجزوم بصحته من بلاد نائية بعيدة، وهى سبأ باليمن إذ بينها وبين الشام ليال سفرًا .

ثم تكلم الهدهد كلام الواصل من نفسه ، المطمئن إلى صحة أخباره ومعلوماته . . فبدأ بتفصيل ما أجمل وإيضاح ما أبهم حتى تزول الغرابة عن سليمان عليه السلام . . وتذهب دهشته بعلم الهدهد بما ليس عنده فقال الجملة الثالثة : ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) . فوصف لسليمان ملكة سبأ : « بلقيس بنت شرحبيل أو شراحيل من نسل يعرب بن قحطان » وأنها قد أوتيت من كل شئ في زمانها مما تحتاج إليه في عظمتها ومُلْكها ومملكتها ثم عرج على عرشها واصفا ومادحا ولعل وصفه له بأنه «عظيم» لما رآه من أبهته، قيل إنه كان من الذهب الخالص، طوله ثمانون ذراعا وعرضه أربعون وارتفاعه عشرون وهو مكلَّل بالدر والياقوت الأحمر والزبرجد، وهو محاط بسبعة أبيات على كل بيت باب مغلق . . ولعل الهدهد وهو الطائر غير العاقل قد ذكر بلقيس وأبان ما هى فيه من مُلك وعظمة ورفاهية ليوضح بوصفه هذا أن ما

(١) سورة لنمل :آية ٢٣ .

هى فيه من هذه النعم الوفيرة يوجب عليها توحيد الخالق الرازق وشكر آلائه، ولكنها والأسف يملأ جوانحه اتخذت هذه النعم مطية للكفر بالله صاحب هذه النعم وجحود آياته ونكران نعمائه، أفصح عن ذلك كله فى جملته الرابعة فقال ﴿ وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ (١) .

هنا يؤكد الهدهد أن بلقيس كفرت بأنعم الله فعبدت هى وقومها الشمس من دون الله ثم بين أن الحامل لهم على هذه العبادة هو الشيطان الذى زين لهم عبادتها بأن ذكر لهم فوائدها ومنافعها فافتتوا بها وسيطر عليهم فصدهم بهذا التزيين عن الطريق الواضح المؤدى إلى الله ألا وهو طريق الإيمان والتوحيد والتتريه لذلك ضلوا ولم يهتدوا . .

ثم تهكم الهدهد بهؤلاء القوم فى الجملة الخامسة وسخر من عقولهم وتفكيرهم ، كما وامتدح الله تعالى وأثنى عليه فقال : ﴿ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ (٢) .

(١) سورة النمل : آية ٢٤ .

(٢) سورة النمل : آية ٢٥ .

أى زين لهم الشيطان ألا يسجدوا ، أو صدّهم لئلا يسجدوا ، أو فهم لا يهتدون أن يسجدوا «ولا» رائدة .. وعلى قراءة التشديد فى «
ألا» لا سجود تلاوة لأنه إخبار عنهم بعدم السجود، وعلى قراءة التخفيف وجب سجود التلاوة والمراب بـ «الخبء» الخير .. وقال الزجاج جاء فى التفسير أن الخبء ها هنا القطر من السماء والنبات من الأرض .. وقال قتادة : الخبء السر .. وقال النحاس : أى ما غاب فى السموات والأرض .. وقيل خبء الأرض كنوزها ونباتها .
والمعنى أن الله تعالى يظهر ما هو مخبئ ومخفى فيهما، كما أنه يعلم ما يخفون وما يعلنون أى يُخْرِجُ ما فى هذا العالم الإنسانى من الخفاء بعلمه له كما يُخْرِجُ ما خفى فى السموات والأرض .

ثم بعد أن وصف الهدهد الله تعالى بما يدل على عظيم قدرته وجليل سلطانه ووجوب توحيده وتخصيصه بالعبادة ساق جملة السادسة قائلا : ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ فهو يعلن معترفاً بأنه لا إله معبود بحق إلا الله ، فهو رب العرش العظيم المتفرد بالعظمة والجلال ، وخصَّ العرش بالذكر لأنه ذكر عرش بلقيس غير أنه نكره لها ، وعرفه فى جانب الله لأنه أعظم المخلوقات . وإلى هنا انتهى كلا الهدهد . ولما كان الهدهد داعياً إلى الخير ، وعبادة الله وحده والسجود له نُهى عن قتله كما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن

ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : نهى النبى ﷺ عن أربع من الدواب : النملة والنحلة والهدهد والصرُد^(١) (وإسناده صحيح .

٣- كيف نستنتج من مقالات الهدهد سالفه الذكر «الدعاء» ؟

هذه الجمل والآيات سالفه الذكر الجارية على لسان الهدهد قد طوت فى ثناياها ما يتمناه ، ويرجوه وهذا هو الدعاء بعينه وأن لم يكن صريحا .

فهذا البيان الذى أسهب فيه الهدهد يظهر من خلاله واضحا التضرع والتذلل لله تعالى أن يكشف عنه هذا البلاء حتى ينجو من القتل والعذاب فهو حينما قدم لسليمان أسباب تغيبه عن المثل بين يديه إنما هو فى حقيقة الأمر يتجه إلى الله تعالى أن يوفق سليمان للاقتناع بكلامه وقبول عذره حتى لا يقتله ولا يعذبه ، ويرشح هذا ويؤيده استنكاره لفعل بلقيس كما يدعمه تمجيده لله تعالى ووصفه بالكمال وتعظيم عرشه ومزجه أسباب تغيبه بالثناء على الله تعالى وأنه لا معبود بحق سواه . . ومثل الهدهد مثل الرجل المتهم وهو فى الحقيقة برئ غير أن براءته متوقفة على دفاعه عن نفسه وإيراده الأدلة والحجج النافية للتهمة والمثبتة شرفه وبراءته .

(١) الصرُد : طائر أكبر من العصفور، ضخم الرأس والمقار، يصيد صغار الحشرات وربما صاد العصفور، وكانوا يتشاءمون به .

فلهذا طوى دفاعه هذا الدعاء فى ركابه طياً . . وكأنه يقول يا رب
أغثنى وأنقذنى واجعل حججى عندهم مقبولة ودفاعى عن نفسى
لديهم مرضياً فيطلقوا صراحي ويشبثوا براثنى .

٤. هل استجيب استغاثة الهدهد ؟

نعم . . لقد استجيب استغاثته حيث قال سليمان له ﴿ سَنَنْظُرُ
أَصْدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ ^(١) ثم دلّهم الهدهد على الماء
فاستخرجوه وارتووا وتوضّوا وصلّوا ثم كتب سليمان كتاباً صورته :
مِنْ عَبْدِ اللَّهِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ إِلَى بَلْقَيْسَ مَلِكَةِ سَبَأَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ السَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى أَمَّا بَعْدُ فَلَا تَعْلُو عَلَىَّ وَاتَّبِعُونِى
مُسْلِمِينَ . . ثم طبعه بالمسك وختمه بخاتمه ثم قال للهدهد ﴿ اذْهَبْ
بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ ^(٢) ثم ما
كان من أمر حضور بلقيس وإسلامها .

٥. ما يمكن استنتاجه من دعاء الهدهد فى القرآن الكريم :

١ - يقول الشيخ طنطاوى جوهرى رحمة الله تعالى ^(٣) : وفى

(١) سورة النمل : آية ٢٧ .

(١) سورة النمل : آية ٢٨ .

(٢) الجواهر فى تفسير القرآن العظيم للشيخ طنطاوى جوهرى : تفسير سورة النمل : ص

١٨٢ .

هذا الخطاب من الهدهد مكافحة لسليمان عليه السلام ، دلالة على أن الأنبياء وغير الأنبياء فى الأرض قد يخفى عليهم ما يعرفه غيرهم ثم قال ونظير ذلك ما تقدم فى سورة الكهف من قول الخضر لموسى ما معناه « ما علمى وعلمك وعلم الخلائق بالنسبة لعلم الله إلا كما أخذت الطائر بمنقاره من البحر » فهناك أفاد أن علم الخلائق قليل بالنسبة لعلم الله ، وهنا أفاد أن أعظم علماء الأرض قد يجهلون ما يعلمه أحقر المخلوقات . . كل ذلك ليعرف الناس أقدارهم وليتعلم الإنسان من كل أحد . . »

٢ - للعلماء أن يعتزوا بعلمهم دون استعلاء أو تكبر .

٣ - يرى البرئ من خلال براءته عزته وكرامته وطهره وصفاءه وعدل الله .

٤ - للبرئ أن يرفع رأسه بالحجة والبرهان ليدحض التهم الموجهة إليه .

٥ - مما يثبت براءة المتهم تأنيبه وتؤدته وحسن بيانه ونظم جملة وتركيب ألفاظه .

٦ - من العجب أن يدهش الطير من الإنسان الذى يعبد غير الله وفى ذلك من الازدراء ما فيه .

٧ - لا ينبغي لعاقِل أن يدع من هو أدنى من مستواه ليعرف الواجب عليه قبله ويفعله .

٨ - لا بأس لمن تأكد خبراً أن يقول عنه جزماً أنى على يقين من صحته وصدقه .

٩ - ما زالت عبادة غير الله متوارثة بين الناس منذ وجودهم حتى قيام الساعة .

١٠ - من السفه أن يعبد من مُنح العقل فاقدته ومسلوبه .

١١ - لكل كائن ميزة تميّزه عما سواه ، وميزة الهدهد «فضلاً عن جمال صورته» رؤيته الماء فى أعماق الأرض مع أبعاده .

١٢ - من ذكاء الهدهد أن نكّر عرش بلقيس وعرف عرش الله قصداً لبيان أنه لا ينبغي أن يقاس بجانبه أى عرش .

١٣ - لكل أمة من مخلوقات الله لغة تميزها فيها هو القرآن الكريم يحكى كلام الهدهد مع سليمان مترجماً إلى اللغة العربية ، وهذا تصديق لقوله تعالى ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ ﴾ (١) .

(١) سورة الأنعام : آية ٣٨ .

• لغة الطيور :

إن البون الشاسع بين الإنسان والحيوان يتركز أساساً حول قدرة الإنسان على استخدام اللغة للتفاهم . ونحن نتكلم بالرموز، فكل كلمة ننطقها تعبر عن أشياء أو أفعال أو أحداث وما إلى ذلك . ورموز الكلمات هذه هي المواد الخام التي نستخدمها لبناء أفكارنا كما أن اللغة هي التي ساعدت على أن يُعرف الإنسان باسم «الحيوان المفكر» . ونحن نعلم بالطبع أنه لا يوجد ثمة حيوان آخر له لغة مطبوعة بالحروف الهجائية ذات قواميس أو قواعد لغوية . ولكن هل للحيوانات في عالمنا هذا من وسيلة للتفاهم يمكن اعتبارها من قبيل اللغة . . ؟

يجب علينا أولاً أن ندرك أن الفارق بين الإنسان والحيوان في اللغة ليس شاسعاً جداً كما كنا نعتقد . ويقول أحد علماء اللغات إن لغة «إنسان الغاب» تعتبر أقرب لغات الحيوان منزلة إلى لغة الإنسان . ويجب علينا أن نتذكر أن هناك أفراداً على هذا الكوكب ليسوا في طلاقة تلاميذ المدارس . وبعض سكان الغابات مثلاً يتعذر عليهم الكلام إذا ما حلّ الظلام، ذلك لأن معظم لغتهم تعتمد على الإشارات وحركات الوجه كعامل مساعد للكلام . ويعتقد كثير من

العلماء أن الطيور والنحل، بل وكل المخلوقات الأخرى لها لغات خاصة تفاهم بها ^(١).

وهو ما يوضحه لنا القرآن الكريم على لسان سيدنا سليمان عليه السلام في الآية التالية ﴿ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾ ^(٢) . وكان الهدهد بطبيعة الحال يتكلم بلغة الطيور . . وواضح أن منطق الطير هو لغة الطيور ، وبذلك يكون قد ورد في القرآن الكريم ما يفيد بأن هناك لغة للنمل، ولغة أخرى للطيور، يستطيع أفراد كل منهما أن يتعرف على معناها ، ويستجيب لمدلولاتها.

وإذا أردنا أن نفهم المقصود بكلمة «لغة» عرجنا إلى المعاجم اللغوية فنجد أن المعجم الوسيط على سبيل المثال قد عرّف اللغة على أنها « أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم »، وجاء في معجم أكسفورد الكبير أن « اللغة هي طريقة التعبير بالكلمات المسموعة ».

ويتضح من ذلك أن اللغة الحقيقية تعتمد على عنصرين أساسيين ، وهما صدور الأصوات ، ثم سماع هذه الأصوات ، وفي الإنسان يتحقق العنصر الأول باهتزاز « الأبال الصوتية » الموجودة داخل

(١) الجانب الإنساني عند الحيوان : مصدر سابق .

(٢) سورة النمل : آية ١٦ .

الخنجرة، ويقوم اللسان الموجود فى أفواهنا بتكييف تلك الأصوات ، عند مرورها عبر تجويف الفم إلى الخارج ، أما سماع هذه الأصوات والاستدلال على مفهومها فهو من وظائف الأذن، وهى عضو السمع عند الإنسان وغيره من الطيور والحيوانات الأخرى .

ولذلك فإن الطفل الصغير المصاب بالصمم، لا يستطيع سماع الأصوات أو الكلمات التى تتبادلها فيما بيننا، ولذلك فإنه يصبح فيما بعد من البكم الذين لا يتكلمون، ولست فى حاجة إلى القول بأن الإنسان يتعلم فى طفولته جميع الكلمات التى ينطق بها كل من حوله من البشر ، أى أنه يتعلم اللغة تعليماً ، ولا يولد على معرفة بها على الإطلاق ، ونستطيع أن نتلمس العلاقة بين الصمم والبكم فى كثير من الآيات القرآنية الكريمة ، ومنها على سبيل المثال ، قول الله تعالى : ﴿ صُمُّكُمْ غَمِيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ (١) .

والواقع أن البكم أو الخرس ، لهم لغة خاصة يتفاهمون بها وهى لا تعتمد إطلاقاً على الأصوات ، ولذلك فقد قيل فى تعريفها أنها « لغة الأصابع » وجاء فى قاموس أكسفورد أن « لغة الأصابع » عبارة عن « التفاهم برموز متفق عليها مسبقاً بواسطة أصابع اليدين » . ومن هذا

(١) سورة البقرة : آية ١٨ .

المنطلق نستطيع أن ندرك فى إيجاز شديد المقصود بلغة « الطير والحيوان » ، فهى تختلف فى مفهومها العلمى اختلافا واضحا عن لغة الإنسان ، كما أنها تعتمد على كثير من الوسائل المتباينة ، وتختلف تلك الوسائل فى طبيعتها من نوع إلى آخر ، فقد تكون على شكل أصوات أو صيحات أو تغريد .

كما أنها قد لا تكون صوتية على الإطلاق ، بل تستخدم فيها بعض الحواس كالشم واللمس والإبصار وغيرها ، كما أنها قد تكون فى بعض الأحيان « إشارات ضوئية » يطلقها بعض الأفراد ، ليستدل منها الأفراد الآخرون على أماكن تواجدها ، ويكون صدورها عن مجموعة الحيوانات التى يطلق عليها اسم « الحيوانات المضيئة » ، وأيا كانت وسيلة هذا التفاهم فقد اعتبرها العلماء المختصون لغة لهذه الحيوانات أو الطيور ، طالما أنها تستخدم فى نقل المعلومات والمشاعر والاحتياجات الغذائية أو الجنسية من فرد إلى آخر .

ويحتوى عالم الحيوان بصفة عامة وعالم الطيور بصفة خاصة على عدد كبير من الأنواع ، يستطيع أفراد كل منها أن يتفاهموا فيما بينهم بوسيلة أو بأخرى من الوسائل التى سبق ذكرها ، وقد استطاع العلماء المختصون بدراسة « سلوك الحيوان » ، أن يوضحوا لنا أن التفاهم الذى يتم بين أفراد النوع الواحد ، قد يكون بقصد التحذير من أخطار

تلوح فى الأفق ، أو التنبيه إلى وجود مصادر غذائية يتم اكتشافها ، أو للتجمع فى قطع واحد، أو سِرْب واحد، أو لبقاء الأسرة متماسكة حتى لا يفضل صغارها عن الآباء والأمهات، وقد يكون فى كثير من الحالات للتجمع بين الذكور والإناث فى مواسم التكاثر، أو لغير ذلك من الأسباب.

ومن المعروف أن للطيور عدة وسائل صوتية ، يتم إحداثها للتفاهم والتعارف والتآلف، ومنها على سبيل المثال هديل الحمام واليمام، وتغريد البلابل والكروان ، وصيحات الطيور البحرية عندما يشاهد البعض منها سرباً من الأسماك عند سطح الماء، وكذلك صرخات الصقور والنسور وغيرها من جوارح الطير ، ولكل منها دلالات خاصة ومعان محددة من تلك التى سبقت الإشارة إليها.

ولا شك أن للأصوات أهمية فائقة فى تجمعات « الطيور المهاجرة » وتعيش تلك الطيور طبيعياً فى الأقاليم الشماليه الباردة، من نصف الكرة الشمالى، فى كل من آسيا وأوروبا وأمريكا الشمالية، وهى فى الواقع من سكان تلك المناطق ولكن عند حلول فصل الشتاء، تشتد برودة الجو، ويتساقط الجليد على سطح الأرض، ويقل الغذاء تدريجياً حتى لا يكاد يوجد على الإطلاق.

ولا تجد تلك الطيور أمامها وسيلة للعيش ، سوى القيام «بهمجرة»

جماعية» نحو الجنوب، حيث يكون الجو - أكثر دفئًا، والغذاء أكثر وفرة وتنوعًا، وقد لاحظ علماء الطيور، أنها تحدث في تلك الفترة من تاريخ حياتها، كثيرًا من الإشارات الصوتية، التي تؤدي في النهاية، إلى تكوين أسراب ضخمة مستعدة للهجرة نحو الجنوب.

ويتكون كل واحد من تلك الأسراب من أعداد ضخمة من الأفراد من نوع واحد فقط، ويكون لكل منها مرشد أو دليل من أقوى تلك الطيور وأعظمها شأنًا، حيث يسير في مقدمة السرب وكأنه رمز للصمود والكفاح، ويقطع البعض من تلك الأسراب المهاجرة آلافًا من الكيلومترات في تلك الرحلة الجماعية، ولما كانت هناك أنواع من الطيور لا تهجر إلا ليلاً، فيكون من الضروري إحداث أصوات مميزة، ليبقى السرب متماسكًا في طيرانه، وخصوصًا في الليالي الحالكة الظلام، التي لا يجدى فيها الإبصار. وتكون تلك الأصوات مرشدًا هامًا لمختلف الأفراد، وعلى وجه الخصوص تلك الأفراد التي تتخلف أو تنحرف عن مسار السرب أثناء طيرانه الليلي.

والأصوات التي تصدرها الطيور على اختلاف أنواعها، سواء كانت من الطيور الأوابد (وهي التي لا تغادر أوطانها صيفًا أو شتاءً)، أو من الطيور المهاجرة، يتم انطلاقها من الحنجرة، وهي تختلف اختلافًا واضحًا عن حنجرة الإنسان أو أى حيوان آخر، وذلك

لأن حنجرة الإنسان تقع فى مقدمة القصبة الهوائية ، بعد تجويف الفم مباشرة ، أما حنجرة الطيور فتقع فى مؤخرة القصبة الهوائية ، بالقرب من الرئتين ، ولذلك تسمى «الحنجرة السفلية» ونظرا لوجودها فى هذا المكان العميق داخل الصدر ، فإن الأصوات التى تصدرها ، تمرّ قبل انطلاقها إلى الخارج ، عبر القصبة الهوائية بأكملها ، وهو ما يجعلها أكثر قوة وبهاءً فى معظم الحالات ، وخصوصا عند الطيور المفردة كما هو معروف ومألوف .

وبالإضافة إلى الطيور توجد حيوانات أخرى عديدة تعتمد على إصدار الأصوات فى حياتها اليومية ، ومنها الخفافيش (الوطايط) على سبيل المثال ، والخفافيش ثدييات ليلية ، فهى تختبئ فى جحورها أثناء النهار ، فإذا أقبل الليل وأظلمت السماء خرجت من مخابئها سعياً وراء الغذاء ، وقد لاحظ العلماء منذ وقت طويل أن للخفافيش قدرة فائقة على الطيران السريع فى الظلام الحالك ، دون أن تصطدم بالأشجار أو الجدران أو الحواجز الأخرى التى تعترض طريقها أثناء هذا الطيران السريع ، ولما كان الإبصار لا يجدى فى مثل هذا الظلام الحالك ، فقد بدأ العلماء فى البحث عن الحاسة التى تعتمد عليها الخفافيش فى تحركاتها الليلية السريعة ، وكان من أوائل هؤلاء العلماء

وأكثرهم شهرة فى هذا المجال العالم الإيطالى «سبالترانى» فقد قام
بعديد من التجارب، كان البعض منها يتسم بالقسوة الشديدة مما
جعلها فيما بعد موضعاً للنقد من جمهرة العلماء ، فقد كان يفتح
عيون الخفافيش حتى لا تبصر على الإطلاق ، ثم يتركها تطير فى
غرفة متسعة ، مدت بها الأحبال فى مختلف الاتجاهات وقد علقت
بها أجراس صغيرة، حتى إذ لامستها الخفافيش أثناء طيرانها دقت
تلك الأجراس ، ثم أظلمت الغرفة إظلاماً تاماً ، وقبّع فى ركن منها
دون حراك، ليرى ما تفعل الخفافيش العمياء أثناء طيرانها فى هذا
الظلام، وقد وجد أنها تطير من مكان إلى مكان داخل الغرفة فى
مختلف الاتجاهات، دون أن يصدق جرس واحد من تلك الأجراس ،
وكانت تقترب من وجهه أحياناً ويحس برفيف أجنحتها دون أن
يلمسه أو تصطدم به ، وقد عرف فيما بعد أنها تصدر أثناء هذا
الطيران بصفة مستمرة أصواتاً حادة «فوق سمعية» (Super - sonic) لا
تستطيع الأذن البشرية إدراكها ، وأن هذه الأصوات أو الموجات
الصوتية عند اصطدامها بالحوارج تنعكس إلى الاتجاه المضاد فتلتقطه
أذن الخفاش ، ويدرك على الفور وجود هذه الحواجز فيتحاشاها. ولا
يصطدم بها على الإطلاق ، وقد استُغِلَّت تلك المعلومات الهامة بعد
ذلك فى عمل «الرادار».

وما زال العلم يسعى ويجدّ ليضيف الجديد من عالم الطيور . .
ويدعو به إلى الإيمان بالله العظيم . . وتظهر فيه بعض معجزات آيات
القرآن الكريم.

الفصل الخامس

دعاء الجبال في القرآن الكريم

• حديث الجبال فى القرآن الكريم :

• تسبيح الجبال مع نبي الله داود عليه السلام فى القرآن الكريم:

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَآلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ۝ (١) ﴾

وقال تعالى : ﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ۝ (٢) ﴾

• نقاط البحث :

١ - ما المراد بالفضل الذى منحه الله لداود؟

٢ - ما معنى «أوبى» .

(١) سورة سبأ : آية ١٠ .

(٢) سورة ص : آية ١٧ - ١٩ .

٣ - ما المراد بالعشي والإشراق؟

٤ - ما حقيقة تسبيح الجبال مع داود وهل يُعَدُّ دعاء؟

١. الفضل الذى منحه الله تعالى لداود عليه السلام:

تعددت الآراء فى حقيقة ذلك ، ونكتفى فى هذا المقام بما ذكره الشوكانى فى تفسيره ^(١) قال رحمة الله تعالى : ١ - قيل النبوة (٢) الزبور وهو الكتاب المنزّل عليه من الله تعالى (٣) العلم (٤) التوبة (٥) الحكم بالعدل (٦) إلانة الحديد (٧) حُسن الصوت (٨) تسخير الجبال معه بالتسبيح وهذا الأخير هو أولى بالترجيح لأحد أمرين أولهما : أ) لأن وجود المُفسّر بجوار المفسر أفضل من أن يكون فى آية أخرى ، وعليه يكون المعنى ولقد آتينا داود منا فضلا وهو تأويب الجبال معه بأمرنا . ب) ولقوله تعالى فى سورة ص ﴿ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ ^(٢).

٢. ما معنى « أوبى »؟

فى هذا اللفظ معنيان وهما ما يلى : -

(١) وأنظر فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية فى علم التفسير للشوكانى : تفسير

سورتى سبأ و ص.

(٢) سورة ص : آية ١٨ .

أ) التسييح : أى سبى معه . قال أبو ميسرة : التأويب هو التسييح
بلسان الحبشة كما يدعم ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ
مَعَهُ ﴾ (١).

ب) السير : أى سبى معه من التأويب الذى هو سير النهار أجمع
ومنه قول ابن مقبل :

لحقنا بحى أوبوا السير بعدما دفعنا شعاع الشمس والطرف
كما وردت فى هذه اللفظ قراءتان وهما :-

أ) قراءة الجمهور : «أوبى» بفتح الهمزة وتشديد الواو على صيغة
الأمر من التأويب وهو الترجيع أو التسييح أو السير أو النوح.

ب) قراءة ابن عباس : «أوبى» بضم الهمزة أمر من آب يثوب إذا
رجع أى رجعى معه . وبهذه القراءة قرأ الحسن وقتادة وابن أبى
اسحاق.

٣. ما المراد بالعشى والإشراق؟

١ - العشى : هو وقت صلاة العشاء .

٢ - الإشراق : هو وقت صلاة الضحى أى وقت أن تشرق

(١) سورة ص : آية ١٨ .

الشمس ويتناهى ضوءها يقال أشرقت الشمس إذا أضاءت وذلك وقت الضحى ، وأما شروقها فطلوعها .. قال الزجاج شرقت الشمس إذا طلعت ، وأشرقت إذا أضاءت .. وذكر ابن كثير فى تفسيره أن ابن عباس قال : لقد قرأت ما بين اللوحين ما عرفت صلاة الضحى إلا الآن ﴿ يُسَبِّحُنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ ^(١) وكنت أقول أين صلاة الإشراق ، وكان بعد يقول صلاة الإشراق ^(٢).

٤. ما حقيقة تسبيح الجبال مع داود عليه السلام وهل يعد دعاء؟

آراء كثيرة فى هذا المقام نذكر أهمها فيما يلى :

١ - قال مقاتل : كان داود عليه السلام إذا ذكر الله ذكرت الجبال معه وكان يفقه معنى تسبيح الجبال وهذا أرجح الآراء .

٢ - وقال محمد بن اسحاق : أوتى داود عليه السلام من حسن الصوت ، ما يكون له فى الجبال دوى حسن فهذا معنى التسبيح .

٣ - وقيل معنى تسبيح الجبال هو إقذار الله لها على التسبيح .

٤ - وقيل إن المقصود من ذلك هو خلق التسبيح فى الجبال معجزة لداود عليه السلام .

(١) سورة ص : آية ١٨ .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٣٠ / ٤ .

ولكننا نقول إن هذه الأقوال الثلاثة الأخيرة لا دليل على ثبوت صحتها ، بل الأدلة في جانب القول الأول . . حيث أثبتت الآيات القرآنية أن كل ما عدا الله تعالى يسبح بحمده ولكن العقلاء لا يفقهون تسبيحهم ، كما أيدت ذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ ، وحمل النصوص القرآنية والنبوية على ظاهرها أولى وأرجح ما لم يكن هناك نص يعارض ذلك وليس في مقامنا هذا نص يعارض هذه الآيات وتلكم الأحاديث ، فالقول بأن تسبيح الجبال هو معجزة لداود ، أو صدى صوته ، أمور وأقوال غير مستساغة ولا مبرر لها ، إذ لو كان الأمر كذلك :

١ - لما كان هناك داع للتقييد بالعشى والإشراق .

٢ - ولما كان هناك داع أيضا لأمر الله تعالى للجبال بأن ترجع مع داود تسبيحه ، ولا لحملها على الحال دون المقال .

ولقد سبق لنا أن أدرجنا «التسبيح» ضمن مرادفات الدعاء ^(١) ، وهذا هو الذى أجاز لنا أن نجعل تسبيح الجبال دعاء إذ التسبيح تنزيه والتنزيه ثناء والثناء حمد وشكر ولا يكون ذلك إلا عن نعمة أو أمل فيها . . ولماذا لا نحمل تسبيح الجبال على أنه رجاء منها ترفعه إلى الله

(١) انظر الفصل الأول من هذا الكتاب .

فى أن يزىدها ويقيها مصادر خير لغيرها، فهى مأوى الحيوانات
وسكنى الإنسان وهى مصدره وقوته حيث طوت فى جنباتها الكثير
من المعادن التى هى من أهم أسباب سعادة الإنسان فى عصره القديم
والحديث ..

أولست الجبال قد جعلها الله رواسى وأوتادا حتى لا تميد الأرض
وتتقلب بسكانها ألم يجعلها موضع الاعتبار والعظة
والاستدلال على عظمته تعالى ، وكمال قدرته ووحدانته ..
وربوبيته .. ؟! فقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ *
وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ
كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (١)، أليست أعظم خلقه على أرضه ارتفاعا
وحجما، ألم يتجلّ الله على الجبل لموسى عليه السلام فجعله دكا،
ليعرف موسى عليه السلام أن أعظم مخلوقاته لم يثبت أمام تجلياته
تعالى فكيف لموسى أن يطلب رؤية ربه؟! ألم يقل الله تعالى فى
سورة الحشر ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مَتَصَدِّعًا مِنْ
خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢).

(١) سورة الغاشية : آية ١٧ - ٢٠ .

(٢) سورة الحشر : آية ٢١ .

فلماذا لا يُحمل تسييحها على ضوء هذا الرجاء والأمل في أن يبقياها الله مصدر خير لغيرها دائما . . وما الفرق بين الجبال والأشجار » التي حُنت جذوعها وبكت وتضرعت حينما صُنِعَ المنبر لرسول الله ﷺ . . وكلها جماد، فما جاز لبعضها جاز لكلها، وما كلام الحجر الذي كان يسلم على المصطفى قبل بعثته وبعدها ببعيد ، وما الجبال إلا من هذه الحجارة التي نطق بعضها للرسول ، ولماذا نذهب بعيدا والله تعالى يقول في سورة الزلزلة ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۚ (١) .

وتدعيما لهذا وتأكيذا لصحته أقول إنه لا مانع عقلا وشرعا أن تنطق الجمادات وكيف يتصور الإنسان استبعاد نطقها ولسانه ما هو إلا جماد وهو حالة بيانه سواء كان لعاقِل أو مجنون ، وألم يسمع المستبعد لذلك قول الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۖ وَقَالُوا لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۖ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ

(١) سورة الزلزلة : آية ٤ - ٥ .

وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي
ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١﴾ .

• آراء المفسرين عند قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا
يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ .. الآية :

وبالرغم من وضوح الرؤية في هذا المقام ، فقد عارض بعض كبار
المفسرين وقالوا إن الجمادات تُسَبِّح بلسان الحال دون المقال ، ومن
ثم نعرض لهذه الآراء ونرد عليها وذلك عند تفسير قول الله تعالى :
﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ
حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٢) .

١ - قال ابن كثير : أى وما من شئ من المخلوقات إلا يُسَبِّح
بحمد الله ولكن لا تفقهون تسبيحهم « أى لا تفقهون تسبيحهم أيها
الناس لأنها بخلاف لغاتكم وهذا عام فى الحيوانات والجمادات
والنباتات .. وهذا أشهر القولين كما ثبت فى صحيح البخارى عن
ابن مسعود أنه قال كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يأكل .. (٣) وفى

(١) سورة فصلت : آية ١٩ - ٢٣ .

(٢) سورة الإسراء : آية ٤٤ .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٣ / ٤٢ - ٤٣ .

حديث أبى ذر أن النبى ﷺ أخذ فى يده حُصَيَّات فسمع لهن تسبيح كحنين الجذع، وكذا فى يد أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم وهو حديث مشهور فى المسانيد .

وأخرج الإمام أحمد عن سهل بن معاذ عن ابن أنس عن أبيه رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه دخل على قوم وهم وقوف على دواب لهم رواحل فقال لهم « اركبوها سالمة ، ودعوها سالمة ، ولا تتخذوها كراسى لأحاديثكم فى الطرق والأسواق فربَّ مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكراً لله منه » .

وفى سنن النسائي عن عبد الله بن أبى عن عبد الله بن عمرو إن الرجل اذا قال « لا إله إلا الله » فهى كلمة الاخلاص التى لا يقبل الله من أحد عملاً حتى يقولها ، واذا قال « الحمد لله ؟ » فهى كلمة الشكر التى لم يشكر الله عبد قط حتى يقولها ، واذا قال « الله أكبر » فهى تملأ ما بين السماء والأرض ، واذا قال « سبحان الله » فهى صلاة الخلائق التى لم يدع الله أحداً من خلقه الا قرره بالصلاة والتسبيح ، واطا قال « لا حول ولا قوة إلا بالله » قال أسلم عبدى واستسلم . . (١)

(١) المصدر السابق .

وقال عكرمة فى قوله ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ ^(١) قال الاسطوانة « أى السارية » الشجرة تسبح . وقال بعض السلف : صرير الباب تسبيحه ، وخرير الماء تسبيحه ^(٢) . . أما الطبرى فيقول فى تفسيره عند هذه الآية : يقول جل ثناؤه وما من شئ من خلقه إلا يسبح بحمده ^(٣) ، ويقول أيضا كما حدثنى به نصر بن عبد الرحمن الأودى قال : ثنا محمد بن يعلى ، عن موسى بن عبيدة ، عن زيد بن أسلم ، عن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بشئ أمر به نوح ابنه ؟ إن نوحا قال لابنه يا بنى : آمرك أن تقول « سبحان الله وبحمده ، فإنها صلاة الخلق ، وتسبيح الحق ، وبها تُرزق الخلق ، قال الله ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ ^(٤) .

نقول قد يستطيع الإنسان أن يفهم من هذا الحديث أن هذه الجملة الكريمة قد وردت فى الكتب السماوية السابقة على القرآن وتناقلتها الرسل فى أزمانهم بين أممهم .

(١) سورة الإسراء : آية ٤٤ .

(٢) سورة الإسراء : آية ٤٤ وأنظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير : مصدر سابق .

(٣) الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ جامع البيان عن تأويل أى القرآن ط الحلبي ١٣٨٣ هـ القاهرة .

(٤) المصدر السابق

وقال الطبرى أيضا حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا يحيى بن واضح ،
قال : ثنا عيسى بن عبيد ، قال : سمعت عكرمة يقول : « لا يعين
أحدكم دابته ولا ثوبه ، فإن كل شئ يسبح بحمده » (١)

ويذكر الشوكاني فى تفسيره كلاما حسنا موضحا آراء طوائف
العلماء فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَأُتَفَقِّهُوا تَسْبِيحَهُمْ ﴾ (٢).

فيقول اختلف أهل العلم فى هذا العموم هل هو مخصوص أم لا ؟
إلى آراء :

١ - فقالت طائفة : هذا التسبيح ليس بمخصوص وحملوا التسبيح
على تسبيح الدلالة لأن كل مخلوق يشهد على نفسه ويدل غيره بأن
الله خالق قادر .

٢ - وقالت طائفة : هذا التسبيح ليس بمخصوص أيضا ، ولكنهم
قالوا هو على حقيقته والعموم على ظاهره . . والمراد أن كل
المخلوقات تسبح لله سبحانه هذا التسبيح الذى معناه التنزيه ، وإن كان
البشر لا يسمعون ذلك ولا يفهمونه ، ويؤيد هذا قوله سبحانه

(١) المصدر السابق .

(٢) سورة الإسراء : آية ٤٤ .

﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْيِيحَهُمْ﴾ فإنه لو كان المراد تسبيح الدلالة لكان أمراً مفهوماً لكل أحد ، وأجيب بأن المراد بقوله ﴿لَا تَفْقَهُونَ﴾ الكفار الذين يُعرضون عن الاعتبار . ونحن نقول : إن هذا الجواب ليس بشئ .

٣ - وقالت طائفة ثالثة : إن هذا العموم مخصوص بالملائكة والثقلين دون الجمادات ، وقيل خاص بالأجسام النامية فتدخل النباتات ، كما روى هذا القول عن عكرمة والحسن وخصاً تسبيح النباتات بوقت نموها لا بعد قطعها ، وقد استدل على ذلك بحديث النبي ﷺ : « مرّ ﷺ بقبرين » وفيه « ثم دعا بعسيب رطب فشقه اثنين ، وقال « إنه يخفّف عنهما ما لم يببسا » ثم قال الشوكاني : ويؤيد حمل الآية على العموم قوله : ﴿ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ ^(١) وقوله ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَلْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ ^(٢) وقوله ﴿ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴾ ^(٣) ونحو ذلك من الآيات . . ثم قال : وثبت في الصحيح أنهم كانوا يسمعون تسبيح الطعام وهم يأكلون مع رسول الله ﷺ ، وهكذا حديث حنين الجذع

(١) سورة ص : آية ١٨ .

(٢) سورة البقرة : آية ٧٤ .

(٣) سورة مريم : آية ٩٠ .

وحديث أن حجرا بمكة كان يسلم على النبي ﷺ . . وكلها في الصحاح . . ثم قال : ومن ذلك حديث تسييح الحصا في كفه ﷺ . ثم ختم كلامه قائلا : ومدافعة عموم هذه الآية بمجرد الاستبعادات ليس دأب من يؤمن بالله سبحانه ويؤمن بما جاء من عند الله (١) .

كما يدعم ذلك قول قتادة : قال كل شئ فيه روح يسبح من شجرة أو شئ فيه .

وقال الحسن والضحاك : كل شئ فيه الروح يسبح .

وقال سفيان الثوري عن منصور عن ابراهيم قال : الطعام يسبح ويشهد لهذا القول آية السجدة في الحج (٢) .

وقال ابن جرير حدثنا محمد بن حميد حدثنا يحيى بن واضح وزيد بن حباب قالا حدثنا جرير أبو الخطاب قال كنا مع يزيد الرقاشي ومعه الحسن في طعام فقدموا الخوان فقال يزيد الرقاشي يا أبا سعيد يسبح هذا الخوان؟ فقال كان يسبح مرة «قلت» الخوان هو المائدة من الخشب، فكان الحسن رحمه الله ذهب إلى أنه لما كان حيا فيه خضرة كان يسبح فلما قطع وصار خشبة يابسة انقطع تسييحه . . وقد

(١) فتح القدير : مصدر سابق .

(٢) المصدر السابق .

يستأنس لهذا القول بحديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ مر بقبرين فقال : « إنهم ليعذبان وما يعذبان فى كبير، أما أحدهما فكان لا يستتره من البول، وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة، ثم أخذ جريدة رطبة فشققها نصفين ثم غرز فى كل قبر واحدة ثم قال لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا » أخرجه فى الصحيحين . . قال بعض من تكلم على هذا الحديث من العلماء إنما قال ما لم ييبسا لأنهما يسبحان ما دام فيهما خضرة فاذا يبسا انقطع تسبيحهما والله أعلم^(١).

أما الألوسى فقد ذهب فى تفسيره إلى القول بأن المقصود من التسبيح الدلالة بلسان الحال أى تدل بإمكانها وحدوثها دلالة واضحة على وجوب وجوده تعالى ووحدانيته وقدرته وتنزهه عن لوازم الإمكان وتوابع الحدوث كما يدل الأثر على مؤثره ففى الكلام استعارة تبعية كما فى نطق الحال، قال وجوز أن يعتبر فيه استعارة تمثيلية . ولا يَأْبَى حمل التسبيح على ذلك قوله تعالى ﴿ وَلَكِنْ لَّا تُفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾^(٢) بناء على أن كثيرا من العقلاء فهم تلك الدلالة على أن الخطاب للمشركين والكفرة لا للناس على العموم لأنه تقدم ذكر قبائحهم من نسبتهم إليه تعالى شأنه ما لا يليق بجلاله فإن الله سبحانه وصف ذاته بالنزاهة عنه وبالغ فيه ما لم بالغ، ثم عقبه بما

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : مصدر سابق .

(٢) سورة الإسراء : آية ٤٤ .

ذُكر دلالة على أن كل الأكوان شاهدة بتلك النزاهة، مبالغة على مبالغة .. فلو كان الخطاب مع غير هؤلاء المنكرين وأضرابهم لم يتلاءم الكلام ويخرج عن النظام ..

فملخص كلام الألوسى : ما من شئ من الأشياء حيوانا كان أو نباتا أو جمادا الا يسبح متلبسا بحمده بلسان الحال دون لسان المقال^(١).

ولكن يتضح لنا أن رأى الألوسى هذا ما هو الا اجتهد شخصى عقلى صرف لم يستند إلى نص قرآنى ولا نبوى ولا أثر للصحابة ، كما أنه لم يتعرض بالنفى .. أو التضعيف كعادته للنصوص التى استدل بها القائلون بأن كل شئ سوى الله تعالى من إنسان وحيوان ونبات وجماد يسبح بلسان المقال لكن العقلاء لا يفقهون تسبيحهم كما أثبتت القرآن والسنة المطهرة ... وما دُعّم بالنص أولى بالقبول وأحرى بالترجيح. علما بأن.أشرطة التسجيل المتعددة المتباعدة الحاملة لأصوات السادة الموتى فى أيامنا هذه لخير شاهد ودليل على أن ما عدا الله يُسبح بلسان المقال لا الحال فحسب ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾^(٢).

(١) الألوسى : أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسى البغدادى المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ . روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ط الحلبي ١٦٦٩ القاهرة.
(٢) سورة الإسراء : آية ٤٤ .

فما من شئ في هذا الوجود إلا ناطق بعظمة الله ، شاهدٌ
بوحدانيته جل وعلا ، السموات تسبح لله في زُرْقَتِها ، والحقول في
خُضْرَتِها ، والبساتين في نُضْرَتِها ، والأشجار في حفيفها ، والمياه في
خريرها ، والطيور في تغريدها ، والشمس في شروقها وغروبها ،
والسحب في أمطارها والكل شاهد بالوحدانية لله .

وفي كل شئ له آية تدل على أنه الواحد

قال في الظلال: « وأنه لمشهد كوني فريد حين يتصور القلب كل
حصاة وكل حجر ، كل حبة وكل ورقة ، كل زهرة وكل ثمرة ، كل
نبته وكل شجرة ، كل حشرة وكل زاحفة ، كل حيوان وكل إنسان ،
كل دابة على الأرض وكل سابحة في الماء والهواء ومعها سكان
السماء ، كلها تسبح لله وتتوجه إليه في علاه ، وحين تشفّ الروح
وتصفو تدرك من أسرار هذا الوجود مالا يدركه الغافلون »^(١)
﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾^(٢) أى ولكن لا تفهمون تسبيح هذه
الاشياء لأنها ليست بلغاتكم ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾^(٣) أى إنه
تعالى حلیم بالعباد لا يعاجل من عصاه بالعقوبه ، غفور لمن تاب
وأناب»^(٤).

(١) الظلال : ٣٦/١٥ .

(٢) سورة الإسراء : آية ٤٤ .

(٤) صفوة التفاسير : ١٦١/٧ .

الخاتمة

سبحان من تسبحه السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من
شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، سبحان الله
الجليل ، سبحان الله العظيم ، سبحان الله القدير ، سبحان الله
العليم ، سبحان الله الحكيم ، سبحان الله الغفور الرحيم ، سبحان
الواحد الأحد ، سبحان الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا
أحد ، سبحان ذى الملك والملكوت ، سبحان ذى العزة والجبروت ،
سبحان من تخر له الجباه بالسجود ، سبحان الملك المعبود ، سبحان
الحى المقصود ، سبحان ذى الكرم والجود .

اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك
الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت
الحق ، ووعدك الحق ولقاؤك الحق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبئون
حق ، والساعة حق ، ومحمد ﷺ حق .

اللهم لك أسلمت وبك آمنت ، وعليك توكلت وإليك أنبت ، وبك
خاصمت وإليك حاكمت فأغفر لى ما قدمت ، وما أخرت ، وما
أسررت وما أعلنت أنت إلهى لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك ،

لك الملك ولك الحمد ولك الثناء الحسن .

اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة ، وأسألك العفو
والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي ، اللهم أستر عوراتي ، وآمن
روعاتي واجعل حياتي زيادة لي في كل خير ، واجعل مماتي راحة لي
من كل شر .

اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي
ومن فوقي وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي .

اللهم إنك تسمع كلامي ، وترى مكاني ، وتعلم سري وعلايتي ،
لا يخفى عليك شيء من أمري وأنا البائس الفقير المستغيث المستجير
الوجل المشفق المقر المعترف بذنبه أسألك مسألة المسكين وأبتهل إليك
ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضريب ، من خضعت
لك رقبتك وفاضت لك عبرته ، وذل لك جسمه ، ورغم لك أنفه .

اللهم لا تجعلني بدعائك رب شقيا ، وكن لي رؤوفا رحيمًا ، يا
خير المسؤولين ويا أكرم المعطين اللهم اجعل التقوى زادنا ، واجعل
الجنة مآبنا ، وارزقنا شكرًا يرضيك عنا ، وورعا يحجزنا عن
معاصيك .

اللهم أعني ولا تعن علي ، وانصرني ولا تنصر علي ، وأمكر لي

ولا تمكر بي وأهدني ويسر الهدى لي وانصرني على من بغى عليّ ،
رب اجعلني لك ذكّاراً لك شكّاراً، لك رهّاباً، لك مطيعاً، مخبتاً
إليك أوامها منيباً اللهم تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي ،
وثبت حجتي، وأهد قلبي، وسدد لساني ، وأسلل سخيمة صدري .

اللهم ارحمني بترك المعاصي أبداً ما أبقيتني، وارحمني بترك ما لا
يعنيني وارزقني حسن النظر فما يرضيك عني ، وألزم قلبي حفظ
كتابك كما علمتني ، ونور به بصري واشرح به صدري ، واجعلني
أتلوه كما يرضيك عني، وافتح به قلبي وأطلق به لساني .

اللهم لا خير إلا خيرك، ولا برّ إلا برك، ولا هدى إلا هديك،
فأهدني لأحسن الأعمال لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، وجنّبي سيئها
وسفسافها .

اللهم إليك توجهت، وبك اعتصمت، وعليك توكلت، ولك
أسلمت ، وأنت ثقتي وأنت رجائي وأنت ملجئي وأنت ملاذي، عزّ
جارك وجلّ ثناؤك، ولا إله غيرك، لك الحمد ولك الفضل ولك
الثناء الحسن .

اللهم بديع السموات والأرض وذا الجلال والإكرام والعزة التي لا
تُرام نسألك اللهم بجلال وجهك العظيم ، ونور وجهك الكريم ، أن

تُلْزَم قُلُوبُنَا حِفْظَ كِتَابِكَ كَمَا عَلَّمْتَنَا، وَارْزُقْنَا أَنْ نَتْلُوهُ عَلَى الْوَجْهِ
الَّذِي يُرْضِيكَ عَنَّا.

اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفْوٌ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنَّا . اللَّهُمَّ اكْفِنَا شَرَّ الْحُسَّادِ
مِنَ الْعِبَادِ، وَاكْفِنَا بِحِلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ وَاغْنِنَا بِفَضْلِكَ عَنْ سُوءِ سَوَاكَ.

اللَّهُمَّ فَارِجُ الْهَمِّ وَكَاشِفُ الْغَمِّ، وَمُجِيبُ دَعْوَةِ الْمُضْطَرِّينَ
وَالْمُظْلُومِينَ، رَحِمْنِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ وَرَحِمْهُمَا أَنْتَ تَرْحَمُنَا وَتَرْحَمُ
ضَعْفَنَا وَفَقْرَنَا إِلَيْكَ فَارْحَمْنَا رَحْمَةً تُغْنِينَا بِهَا عَنْ رَحْمَةٍ مِنْ سَوَاكَ.
أَنْتَ الْأَوَّلُ وَأَنْتَ الْآخِرُ وَأَنْتَ الظَّاهِرُ وَأَنْتَ الْبَاطِنُ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ .

اللَّهُمَّ أَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا وَأَجِرْنَا مِنْ خِزْيِ الدُّنْيَا
وَعَذَابِ الْآخِرَةِ.

اللَّهُمَّ وَلِّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ خِيَارَهُمْ وَلَا تَوَلَّ عَلَيْهِمْ شَرَارَهُمْ وَأَبْعِدْ
عَنْهُمْ أَوْلِيَاءَ السُّوءِ وَأَمْرَاءَ السُّوءِ وَحُكَّامَ السُّوءِ، وَجَنِّبْهُمْ كُلَّ سُوءٍ
بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

اللَّهُمَّ اصْلَحْ لَنَا رُؤُسَاءَنَا، وَحُكَّامَنَا وَمُلُوكَنَا وَقَادَتَنَا وَقَضَاتَنَا وَجُنْدَنَا
وَوَلَاتَنَا وَالْعُلَمَاءَ وَالْمُتَعَلِّمِينَ وَالسُّفَهَاءَ وَالْجَاهِلِينَ وَالْغَزَاةَ وَالْمُجَاهِدِينَ
وَالْمَسَافِرِينَ وَالتَّجَارَ وَالْعَمَالَ وَالزَّارِعِينَ وَالْأَوْلَادَ وَالْوَالِدِينَ وَالنِّسَاءَ
وَالضُّعَفَاءَ وَالْفُقَرَاءَ وَالْمَسَاكِينَ، وَأَطْرَحْ لِلْجَمِيعِ الْبَرَكَةَ فِي الْمَعَاشِ

واسبل اللهم علينا وعليهم سترك الحصين، وصحّح لنا ولهم إيماننا ،
وقوّ عزائمنا، وثبّت دعائنا، ونجّنا عما نحاذر في الدارين، نحن
ووالدنا وأولادنا وأزواجنا وإخواننا وأخواتنا وأعمامنا وعماتنا،
وأخوالنا وخالاتنا وأجدادنا وجداتنا وقراباتنا وجيراننا، وأصهارنا
وأصحابنا، ومُحبينا ومشايخنا، ومن علّمنا ومن علّمناه، ومن والانا
بالإحسان فيك ومن والينا، وذرائنا وذرياتهم وجميع المسلمين
والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات إنك أنت الله
مجيب الدعوات وقاضى الحاجات، وما سألناك من خير فاعطنا، وما
سلم نسألك فابتدئنا.

وما قصّرت عنه أعمالنا وأمالنا من الخيرات فبلّغنا إيّاه بفضلِكَ
ومَنك وكرمك وإحسانك يا أرحم الراحمين يا الله يا الله يا الله ، ياذا
الجلال والإكرام.

اللهم إنّنا جئناك تائبين فلا تردنا خائبين واختتم لنا بالإيمان وتوفنا
مسلمين وألحقنا بالصالحين.

وصلّى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه
وذرياته ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين .

« تم الكتاب بحمد الله تعالى وتوفيقه » .

المراجع والمصادر

• القرآن الكريم وتفسيره :

- ١ - القرآن الكريم كتاب الله تعالى : كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير.
- ٢ - ابن كثير : الإمام الجليل ، الحافظ عماد الدين ، أبو الفداء اسماعيل بن كثير المتوفى سنة ٧٧٤هـ.
- تفسير القرآن العظيم . ط المكتبة التوفيقية - القاهرة.
- ٣ - أحمد : الشيخ محمد محمود أحمد. آيات الدعاء فى القرآن الكريم : رسالة دكتوراة ١٩٧٩م - مكتبة كلية أصول الدين - القاهرة.
- ٤ - الرازى : الإمام الفخر محمد بن عمر التيمى القرشى المتوفى سنة ٦٠٤ هـ . التفسير الكبير « مفاتيح الغيب » - ط. دار الكتب العلمية . بيروت لبنان .

- ٥ - الصابونى : محمد على الصابونى . - صفوة التفاسير - ط.
مكتبة الغزالي - دمشق - بيروت.
- ٦ - الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ
جامع البيان عن تأويل آى القرآن - ط الحلبى ٣٨٣ هـ القاهرة.
- ٧ - الحمصى : محمد حسن الحمصى . تفسير وبيان القرآن الكريم
مع أسباب النزول للسيوطى . ط. دار الرشيد - بيروت.
- ٨ - الألوسى : أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسى
البغدادى المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ. روح المعانى فى تفسير القرآن
العظيم والسبع المائى بتحقيق وضبط وتصحيح محمد زهرى
النجار . ط. مؤسسة الحلبي ١٩٦٦ م القاهرة .
- ٩ - الشوكانى : محمد بن على بن محمد الشوكانى المتوفى بصنعاء
سنة ٢٥٠ هـ . فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية
والتفسير . ط مكتبة مصطفى البابى الحلبي - القاهرة.
- ١٠ - الجواهر فى تفسير القرآن الكريم للشيخ الحكيم طنطاوى
جوهري .
- ١١ - فى ظلال القرآن : بقلم الأستاذ سيد قطب .

• السنة وشروحها :

- ١ - البخارى : أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة البخارى (١٩٤ - ٢٥٦هـ) صحيح البخارى . طبعة دار مطابع الشعب .
- ٢ - ابن حجر العسقلانى : أبو الفضل أحمد بن على الكتابى المصرى المتوفى سنة ٥٨٢ هـ فتح البارى شرح صحيح البخارى - ط الريان - القاهرة .
- ٣ - مسلم : الإمام أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى النيسابورى (٢٠٦ - ٢٦١هـ) الجامع الصحيح بشرح النووى - المطبعة المصرية .
- ٤ - الترمذى : محمد بن عيسى (٢٠٩ - ٢٧٩هـ) . سنن الترمذى بشرح الإمام أبى بكر بن العربى المالکى - مطبعة الصاوى . ط . أولى ١٣٥٣ هـ - ١٩٦٤ م القاهرة .
- ٥ - أبو داود : الحافظ أبو داود سليمان بن الأشعث السجستانى . سنن أبى داود ، ط أولى . الحلبي بمصر ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م .
- ٦ - الألبانى : محمد ناصر الألبانى . سلسلة الأحاديث الصحيحة - ط . المكتب الإسلامى .

- ٧ - أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١هـ) «المسند» ، المطبعة الميمنية سنة ١٣١٣ هـ ، ومطبعة المعارف سنة ١٣٦٥هـ.
- ٨ - الحاكم : محمد بن عبدالله (٣٢١ - ٤٠٥هـ). المستدرك ، ط. دائرة المعارف بحيدر آباد الهند سنة - ١٣٤٠ هـ.
- ٩ - الطبراني : سليمان بن أحمد (٢٦٠ - ٣٦٠هـ) «المعجم الكبير» مخطوط، ثم طبع ببغداد فى خمسة وعشرين مجلداً.
- ١٠ - الطبراني : « زوائد معجم الطبراني الأوسط والصغير » للحافظ الهيثمى، مخطوط.
- ١١ - الطبراني : « المعجم الصغير » مطبعة الأنصار فى دهلى الهند سنة ١٣١١ هـ.
- ١٢ - النسائي : أحمد بن شعيب (٢٥٥ - ٣٠٣هـ). «السنن» المطبعة الميمنية سنة ١٣١٢ هـ القاهرة.
- ١٣ - ابن أبى الدنيا : عبدالله بن محمد (٢٠٨ - ٢٨١هـ). «الصمت» مخطوط ثم طُبع.
- ١٤ - ابو الشيخ : ابن حبان عبدالله بن محمد (٢٧٤ - ٣٦٩هـ) أخلاق النبى ﷺ وآدابه ط. السعادة بمصر.
- ١٥ - منسك : الدكتور أ. ي. منسك أستاذ اللغات السامية بجامعة

ليدن . مفتاح كنوز السنّة - نقله من الإنجليزية إلى العربية الأستاذ
محمد فؤاد عبد الباقي . ط . أولى ، مطبعة مصر .
١٦ - مفتاح اللجنة فى الاحتجاج بالسنّة : ط . دار الهدى -
الكويت .

• السيرة والتراجم :

- ١ - ابن كثير : ابو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقى المتوفى سنة
٧٧٤هـ . البداية والنهاية ومعه نهاية البداية والنهاية فى الفتن
والملاحم تحقيق وتوثيق صدقى جميل العطار ، ط . أولى - دار
الفكر بيروت لبنان ١٤١٧ هـ / ١٩٦٦ م .
- ٢ - ابن عساكر (٤٩٩ - ٥٧١هـ) « تاريخ دمشق » (١ - ٢) تحقيق
صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٥١ - ١٩٥٤ م .
- ٣ - الطبرى : الإمام ابو جعفر محمد بن جرير الطبرى (٢٢٥ -
٣١٠هـ) . تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبرى) (١ - ١٥) صورة
عن المطبعة الأوربية مصر .
- ٤ - النجار : فضيلة الشيخ عبد الوهاب النجار . قصص الأنبياء .
ط . ثانية . الحلبي ١٣٨٦ هـ القاهرة .

- ٥ - عرائس المجالس للثعلبي - القاهرة - ١٩٥٤ م .
- ٦ - سبط بن الجوزي : شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزاوغلي (٥٨٢ - ٦٥٤) - مرآة الزمان في تاريخ الأعيان (ج١) - تحقيق وتقديم الدكتور إحسان عباس . ط . أولى . دار الشروق - ١٤٠٥ - ١٩٨٥ القاهرة .
- ٧ - زاد المسير لابن الجوزي (١ - ٩) ، المكتب الإسلامي - بيروت ١٣٨٤ هـ .
- ٨ - وصفى : الدكتور محمد وصفى . مع الأنبياء - ط . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة .
- اللغة :
- ١ - الصحاح للجوهري (١ - ٩٦) . تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، القاهرة ١٩٥٦ .
- ٢ - المنجد في اللغة : تأليف لويس معلوف اليسوعي . ط . ١٩ - المطبعة الكاثوليكية - بيروت .
- ٣ - الفيروز أبادي : محمد بن يعقوب (٧٢٩ - ٨١٧) . القاموس المحيط - ط . ثانية سنة ١٣٥٣ هـ .

• مراجع عامة :

- ١ - دعاء الأنبياء والرسل : د. محمد محمود أحمد ود. موسى الخطيب - ط. مركز الكتاب للنشر.
- ٢ - المجتمعات الحشرية تأليف هارولد براستن ترجمة الدكتور محيى محمد ابراهيم مراجعة الدكتور محمود حافظ ط . مؤسسة سجل العرب ١٩٦٣٠ القاهرة.
- ٣ - فى عالم الحيوان : النمل والنحل للدكتور حسين فرج زين الدين ط . دار الفكر العربى .
- ٤ - عالم الحيوان بين العلم والقرآن : للدكتور عبد الرازق نوفل - كتاب اليوم . ط . أخبار اليوم ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥ م القاهرة.
- ٥ - رحمة الله للعالمين (ﷺ) : محمد حسن عبدالله . ط أولى مكتبة الآداب ١٤١٠ هـ - - ١٩٩٠ م.
- ٦ - الجانب الإنسانى عند الحيوان تأليف فانس باكارس ترجمة سعد غزال مراجعة الدكتور أنور عبد العليم ط . دار الفكر العربى.
- ٧ - دعاء السحر: فضيلة الشيخ محمد محمود الصواف . ط . دار الاعتصام القاهرة.

- ٨ - طيور الوطن العربى : للدكتور صبحى كامل والدكتور رءوف
سلامه ط. دار ومطابع المستقبل . القاهرة .
- ٩ - كتاب دائرة المعارف للبستانى .
- ١٠ - كتاب بداية القدماء وهداية الحكماء .
- ١١ - الخطيب : د. موسى الخطيب . من دلائل الإعجاز العلمى فى
القرآن الكريم والسنة النبوية .

٥ تقديم

الفصل الأول : كل شئ فى الكون يُسبح بحمد الله تعالى

- ١١ ويدعوه ويشهد بقدرته ووحدانيته
- كل ما فى الكون يسبح لله ويسجد لعظمته ١٣
- سبحانك يارب سبحانك يارب ١٥
- والرعء يسبح ١٧
- وفى السنة النبوية نصوص كثيرة تدعم ما سبق ٢٣
- حنين الجذع الذى كان يخطب عليه رسول الله ﷺ ٢٦
- رحمة الله للعالمين وعالم الحيوان والطير والنبات والجماد ٢٩
- وبلغت نهاية رحمته ﷺ أن نهى عن لعن الحيوان والجماد ٣٣
- ماذا يُستفاد من هذه الآيات ؟ ٣٥
- تسبيح وبكاء .. وشكر ودعاء ٣٦
- تسبيح وبكاء ٣٦
- شكر وأوبة ودعاء ٤١

- الفصل الثاني : دعاء النمل فى القرآن الكريم ٥١
- نقاط البحث ٣٥
- من هم الذين أتوا على وادى النمل ، ولماذا ، وأين هو ؟ ٥٤
- من القائله : ادخلو مساكنكم ، هل تكلم معها غيرها ، وكيف ساغ لها مخاطبتهم مخاطبة العقلاء؟ ٥٥
- مستعمرة النمل ونظام العمل بداخلها ٥٩
- حرب النمل ٦٢
- من عجائب النمل : النملة لا تقترض ولا تحب الاقتراض. ٦٥
- التكافل الاجتماعى فى حياة النمل ٦٦
- من عادات النمل : ٦٩
- ١ - النوم ٦٩
- ٢ - كيف يتخلص النمل من جثث موتاه؟ ٧٠
- لمن يتوجه النهى فى « لا يحطمنكم » . . الآية ٧١
- هل تعتبر مقالتها هذه دعاء؟ ٧٤
- ما هو موقف سليمان عليه السلام من مقالة النملة؟ ٧٥
- ما يمكن استنتاجه من دعاء النملة فى القرآن الكريم ٧٧
- الفصل الثالث : لغة النمل. ٧٩
- ماذا يقول العلم عن لغة النمل؟ ٨١
- كيف يعرف النمل الموجود فى العش طريقة؟ ٨٢

- التعليم والتقليد وأثرهما فى حياة النمل ٨٦
- ذكاء النمل ٨٧
- قرون الاستشعار تلعب دور عضو التخاطب ٩٢
- للنمل لغة مسموعة ومنطوقة ومفهومة ٩٤
- الفصل الرابع : دعاء الهدهد فى القرآن الكريم ٩٧**
- حديث الهدهد فى القرآن الكريم ٩٩
- نقاط البحث ٩٩
- من قائل هذه العبارة ، وما المقصود منها ، ولماذا قالها ؟ ١٠٠
- نص مقالة الهدهد ومشتملاتها ١٠٣
- كيف نستنتج من مقالات الهدهد السالفة الذكر «الدعاء» ؟ ١٠٨
- هل استُجيب استغاثة الهدهد ؟ ١٠٩
- ما يمكن استنتاجه من هذا الدعاء ١٠٩
- لغة الطيور ١١٢
- الفصل الخامس : دعاء الجبال فى القرآن الكريم ١٢١**
- تسبيح الجبال مع نبي الله داود عليه السلام فى القرآن الكريم ١٢٣
- نقاط البحث ١٢٣
- الفضل الذى منحه الله تعالى لداود عليه السلام ١٢٤
- ما معنى «أوبى» ؟ ١٢٤
- ما المراد بـ «العشى والإشراق» ؟ ١٢٥

- ما حقيقة تسييح الجبال مع داود عليه السلام، وهل يُعَدُّ دُعَاءٌ؟..... ١٢٦
- آراء المفسّرين عند قوله تعالى « وإن من شئ إلا يُسَبِّح بحمده . .
الآية » ١٣٠
- الخاتمة. ٣٩
- المراجع والمصادر. ١٤٧
- فهرس الكتاب. ١٥٧